

قطاع الثقافة

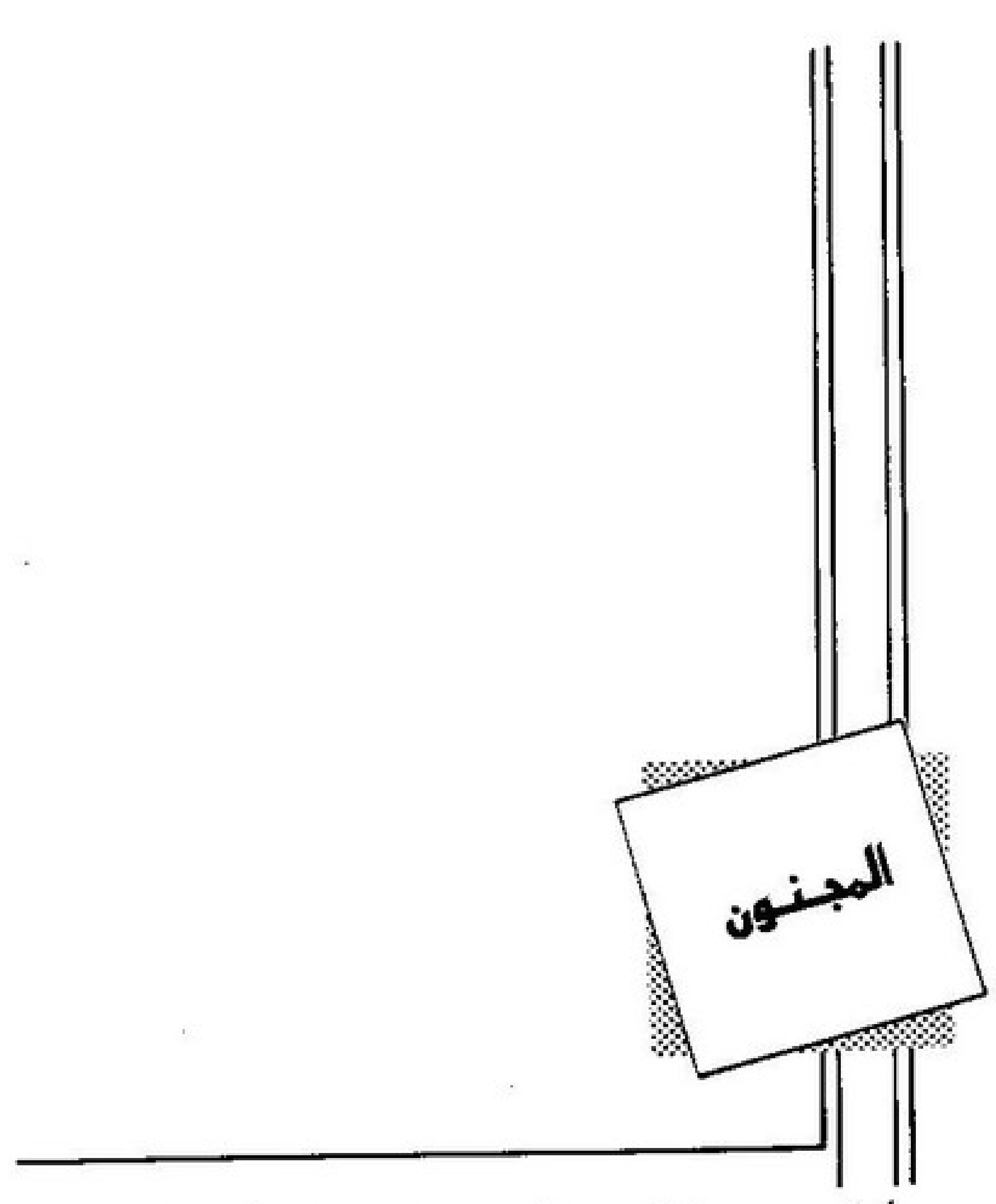
مجموعة الأعمال الكاملة لأحمد رجب

نهارك سعيد

أحمد رجب

إذا كنـــت أعـــزب نهـارك أبيض
وإذا كنـــت متزوجـاً نهـارك سعيد

أحمد رجب



رأينا محسن وداليا فى منزل صديقنا عزيز ليلة رأس السنة . كانا ينتحيان ركنا هادئا ، وكان المشهد يؤكد أنهما عاشقان تفرغ كل منهما لحب الآخر .

ولم نصدق بسهولة الحقيقة التى تكشفت لنا وهى أن محسن وداليا متزوجان من ست سنوات !

وكان انضمام محسن وداليا إلى مجموعتنا كصديقين جديدين حدثا مثيراً لأيام طويلة ، فقد كانت المشاهد الرومانسية التى تحدث أمامنا مدهشة حقا بالنسبة لزوجين لهما أقدمية فى الزواج مدتها ست سنوات .

كان محسن يتحدث إلى داليا كملكة ، ويعاملها كأميرة ، ويدللها كطفلة . إذا سار بجوارها طوقها بساعده ، وإذا همت بالجلوس إلى مائدة كان خلفها يحيطها بالذراعين حتى تجلس ، وإذا جلست عانقت أصابعه أناملها .

وأطلقنا عليهما : قيس وداليا !

وأصبحت مشاهد الحب التى لا يظهران إلا فى إطارها مادة خصبة لتهكم زوجاتنا ، وصار التليفون فى بيوتنا مشغولا بالساعات : زوجة على سماعة ، وزوجة على سماعة أخرى ، وفى سلك التليفون ـ دائما ـ سيرة قيس وداليا !

وكان صديقنا الدكتور نور أشدنا اهتماما بهذا الغرام الرومانسى الحاد بين الزوجين ، وقال دكتور نور أنه ـ كطبيب نفسى ـ قد درس شخصية محسن وتصرفاته ويمكن القول بأن محسن يعانى « حالة عقلية » .

— مجنون ؟

— طبعا

— لأنه يهيم غراما بزوجته ؟

— كلا ، ولكن لأن نموه النفسى توقف عند طور المراهقة . المفروض أن يكون قد تجاوز هذه المرحلة . الحب النارى نفسه ـ أو الغرام ـ هو أيضا مجرد مرحلة . .

* * *

لا أحد يعرف كيف تحول التيار ـ من جانب زوجاتنا ـ من تهكم وسخرية إلى إعجاب ممزوج بالحسد لمحسن وداليا !

أصبحنا ـ نحن الأزواج ـ نستشعر الحرج البالغ وزوجاتنا يمصمصن الشفاه حزنا وحسرة على الحظ العاثر الذى ألقى بهن إلى أزواج نسوا تنهدات الحب وهمس الغرام !

ولم يكن أمامنا ـ كأزواج ـ للإفلات من هذا المأزق إلا التعلق بالأمل الذى لاح وهو أن يثبت الدكتور نور لزوجاتنا أن محسن مختل العقل .

فلقد تحول محسن ـ فى نظر الزوجات ـ إلى مثل أعلى للزوج الباهر الذى يضفى على الزواج سحر الحب ورومانسية الغرام ، ويستطيع بحرارة عواطفه المتجددة دائما أن يقهر ملل الليالى ورتابة الأيام .

وعندما انسحب صديقنا عاطف من لقاءاتنا بحجة كثرة العمل ، لم أكن أعرف أن انسحابه يخفى وراءه حكمة ، فلقد قال لى فيما بعد : إن رومانسيات محسن وزوجته التى تجرى أمام عيوننا تمثل أخطر الأفكار الهدامة !

وصدق الرجل ، فذات مساء قالت لى زوجتى :

— برامج التليفزيون مملة الليلة .

— ماذا تقترحين ؟ نخرج ؟

قالت بحماسة بالغة :

— لأ . نتكلم فى التليفون .

— نكلم من ؟

— أنا وأنت نتكلم معا مثل داليا ومحسن ، انهما يتحدثان فى التليفون بالساعات فى البيت ، هو فى غرفة يمسك بسماعة وهى فى غرفة أخرى .

— من قال لك هذا ؟

— داليا .

— ولماذا لايتحدثان وجها لوجه ؟

التليفون فيه رومانسية . . تصور ماذا قال لها محسن وهو يحدثها من الغرفة الأخرى . . يا حبيبتى . . عندما تغادرين الغرفة التى أجلس فيها إلى غرفة أخرى فإننى أشعر بالغربة . . تصور . .

اسمع . . سأذهب أنا إلى الصالة وحدثنى أنت بالتليفون من هنا .

وبسرعة ، اختفت زوجتى ثم جاءنى صوتها من بعيد عبر الممر :

— ارفع السماعة وكلمنى .

رفعت سماعة التليفون وقلت لها .

— تحت أمرك . . أفندم .

— كلمنى .

— ماذا أقول ؟

— ما كنت تقوله لى زمان .

— ماذا كنت أقول زمان ؟ . . تعرفين أننى ضعيف الذاكرة .

— كنت تعبر لى عن حبك بالتليفون :

— ولكننى أحبك فى كل لحظة وليس فى التليفون فقط .

— كلامك حلو . . استمر .

انتظرت زوجتى برهة لكى أتكلم لكننى لم أجد كلاما ، فعادت تقول . .

— تكلم . . ألا تعرف ماذا يقول الإنسان عندما يمسك بسماعة التليفون . .

— يقول ألو . . وإذا كان إيطاليا قال برونتو .

قالت بعصبية :
— إذن فانت لاتنوى أن تكلمنى فى التليفون . ووضعت زوجتى سماعة التليفون بعنف وبدأت أزمة حادة .
ولم أكن وحدى ضحية هذا المذهب الجديد : « المحسنيزم » ، فقد انتشرت ردود الفعل فى كل بيت ..
.. فى بيت صديقنا رشدى ـ مثلا ـ سألته زوجته ثريا :
— لماذا لا تفعل مثل محسن ؟
قال فى غيظ مكبوت :
— وماذا يفعل محسن ؟
— عندما يتأخر فى العمل عن موعد الغداء يرسل إلى داليا باقة زهور ومعها سطور حب رقيقة يعتذر فيها عن تأخره .
— باقة زهور ؟ .. من قال لك هذا ؟
— داليا .
— زوجة المجنون ؟
— أريدك مجنونا مثله ، فترسل الزهور وكلمات الحب .
— ألا يكفى البيت مجنون واحد .. أنت .
— فعلا أنا مجنونة لأنى أرتضى هذه الحياة معك . وإنهارت ثريا باكية .

* * *

ازداد تعلقنا بأمل أن يثبت الدكتور نور جنون هذا الرجل الرومانسى الذى بدأ يحطم بيوتنا . فقد أصبح الدكتور نور طرفا فى الخصومة وبات يلعن ذلك اليوم الذى رأى فيه ذلك الملتاث محسن وزوجته المتخلفة عقليا داليا .

ففى سبيل دراسة شخصية محسن ، جلس يستمع إلى زوجته كريمة وهى تحكى كيف سيحتفل محسن وداليا فى الشهر القادم بعيد أول لقاء بينهما . وقالت كريمة إن محسن وداليا سوف يعيدان

تمثيل ما جرى فى ذلك اليوم ، فيسير خلف داليا فى شارع الزهور بمصر الجديدة وهو يقول : ردى .. كلمينى .. من أنت أيها الملاك ؟ .. وسوف تتهره داليا بينما هو يصر على تعقبها .

ظهرت معالم التقزز الشديد على وجه الدكتور نور وهو يقول :

— ما هذا العبث الصبيانى ؟
فأردفت كريمة تشرح :
— أصل القصة أن محسن لمح داليا من بعيد فى القطار فأحس بسهم الحب ينفذ إلى قلبه ، وأسرع خلفها غير أنه فقد أثرها فى محطة القاهرة .. حتى لمحها مصادفة تسير فى شارع الزهور فتعقبها ليطلب يدها من أسرتها .

قال الدكتور نور بنفس الاشمئزاز :
— تقولين أنهما سيعيدان تمثيل هذا الهراء ؟
— كما يفعلان كل عام .
منصرفا بذهنه تماما إلى دراسة هذا الخبر الجديد ، لم يلاحظ الدكتور نور أن زوجته مبهورة بالفكرة . لقد فوجىء تماما وكريمة تقول له :
— لماذا لا نعيد نحن أيضا تمثيل أول لقاء لنا ؟ إن داليا تقول إن هذا يجدد شباب الحب .

تأملها الدكتور نور مرفوع الحاجبين ثم قال :
— ماذا قلت ؟
— نعيد تمثيل ما حدث عندما كنت أزور عمتى فى عوامتها ، فانزلقت قدمى وسقطت فى النيل . ومن العوامة المجاورة قفزت أنت إلى الماء بملابسك لتنقذنى ..
وتسلط تأثير الذكرى على مشاعر كريمة فطوقت زوجها بذراعيها وهى تتنهد : يا حبيبى يا نور !

ثم أضافت : ليتنا نعيد تمثيل ما فعلناه .
— أغوص بملابسى فى النيل فى برد يناير؟
قالت فى نعومة ودلال :
— وحياتى عندك .
فجأة ، انتفض الدكتور نور واقفا فى صيحة رهيبة : مختلة . .
ثم أردف يردد فى صياح هستيرى : مختلة . . مختلة . .

ولم يكترث الجيران ، فقد عرفوا من زمن بعيد أن مختلة هو اسم التدليل الذى يطلقه دكتور نور على زوجته ، كما أن الصوت المرتفع الذى يسمعونه بعد ذلك ليس صوت بكاء الدكتور نور ، بل هو - كما قال لهم من قبل - تنفيس دمعى .

* * *

بصبر نافد ، أنتظرنا تلك الليلة التى دعونا فيها محسن ليرد على أسئلتنا : كيف الطريق إلى حياة رومانسية دائمة مع الزوج ، ومن خلال المناقشة سوف يثبت الدكتور نور أمام الزوجات أن محسن مصاب بالجنون .

* * *

وجاءت الليلة الموعودة .
وتألق محسن واكتسح . كان رائعا . وكان منطقيا . وكان حديثه جذابا ومرحا ، ودهشنا لأن الدكتور نور لاذ بالصمت .

لم يناقش ، ولم يحاول أن يقنع الحاضرين بالنظرية التى توصل إليها أخيرا وهى أن عظمة أنف محسن وشحمة الأذن عنده وفكه الأسفل تنبىء جميعا بأنه سفاح ودموى وأن داليا مصيرها أسود .
قال محسن فى تلك الليلة :
— لقد عرفت الطريق إلى السعادة الزوجية الدائمة من خالى ،

فبسبب ظروف خاصة عشت مع هذا الخال منذ طفولتى ، وكانت فى حياة خالى مأساتان :

الأولى خوفه من أن ترفض مدام لولو الزواج منه ، والمأساة الثانية هى أن مدام لولو لم ترفض الزواج منه .

ففى بيت خالى رأيت الحب وكيف يكون جميلا ورائعا وهو ينبض بالحياة ، ثم رأيت الحب وكيف يسقط صريعا بخناجر العشاق - لاتصدقوا أن الحب يسعى إلى الخلاص من نفسه ، فالحب لا ينتحر أبدا . نحن الذين نقتله .
وقد تعلمت كيف أحمى حبى من نفسى .

قال محسن :
— فى بيت خالى عاصرت حياة القبلة ، كيف تولد على يد الحبيبة عند التعارف ، ثم تنتقل إلى وجهها أيام الغرام ، ثم تنتقل إلى جبينها بعد شهر العسل ، ثم تنتقل إلى رحمة الله .
وقد تعلمت كيف تعيش القبلات .

قال محسن :
— وفى بيت خالى رأيت الحب يبدأ همسا . فى الهمس يتفاهم الحبيبان . فى الصياح لا أحد يسمع الآخر . أصبح خالى يصيح كثيرا . زوجته تصيح كثيرا . . بسبب غيرتها أصبحت شديدة التسلط والسيطرة ، لم تكن تسمح لخالى بأن يدس أنفه فى أى شأن من شئون الحياة المشتركة . الشىء الوحيد الذى كانت تسمح له بأن يدس أنفه فيه هو منديله .

قال محسن :
— فى الحب كل طرف ينصت للآخر ، ومن هنا يأتى التفاهم .
ولم يكن التفاهم بين خالى وزوجته معدوما تماما ، ففى سبيل هذا التفاهم سعى خالى كثيرا إلى فتح حوار معها كما سعت هى أيضا ،

وكان كل منهما لايسمع حوار الاخر ، وكان سكان الشارع يسمعون الاثنين . ولم يتوقف هذا كله إلا عندما انضم إلى الحوار طرف ثالث عاقل بدا يستمع إلى الطرفين وهو قاضى الأحوال الشخصية .

قال محسن :

لقد رأيت عذاب خالى وشقاء زوجته بعد رحيل الحب ، لكننى لم أكره الحب . الحب جميل . المحبون هم الذين يشوهون الحب .

قال محسن :

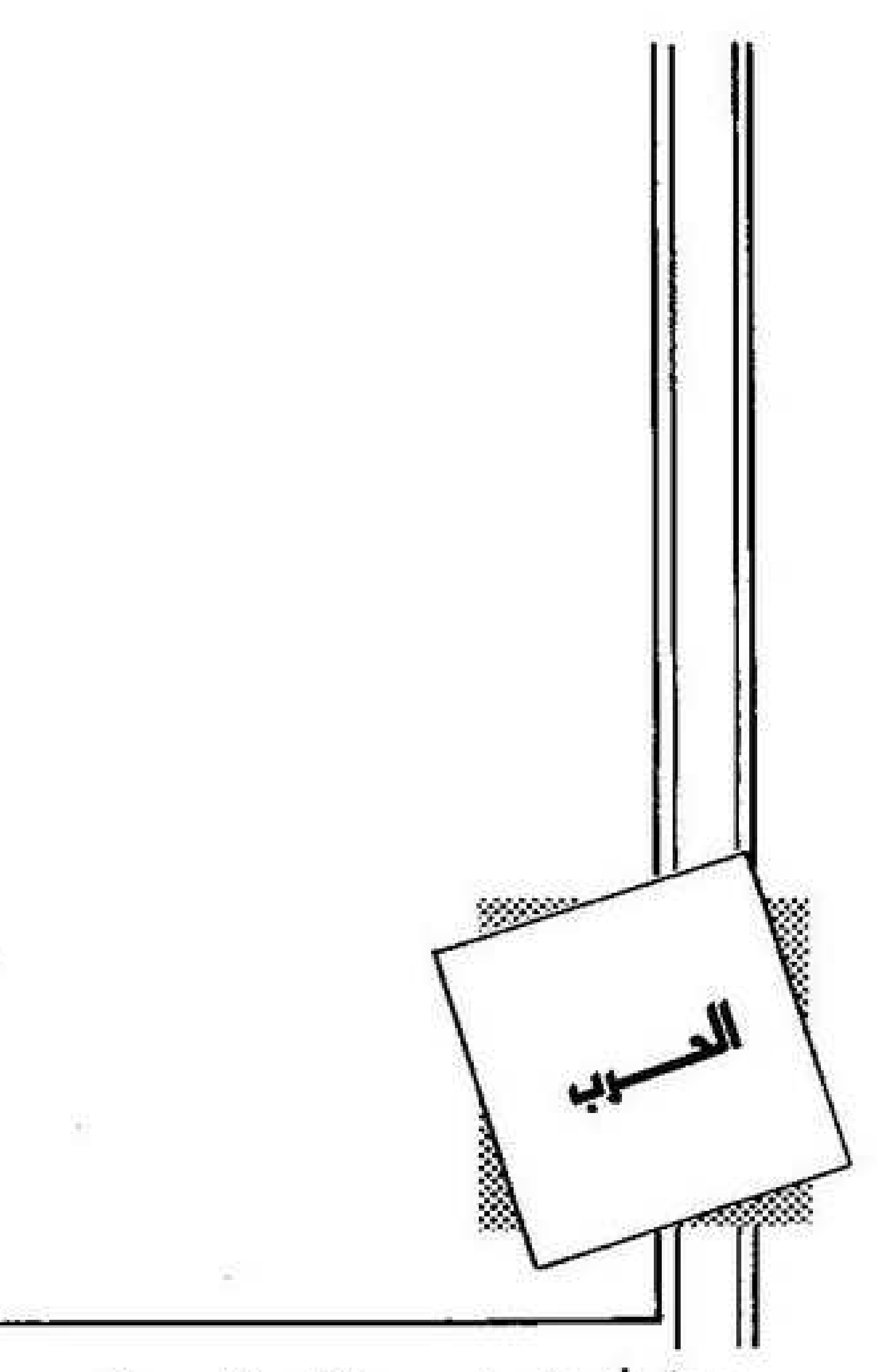
— أنا لا أصنع معجزة كما تتوهمون ، فما أبسط مطالب الزوجة لكى تغمر زوجها بالحب ، إنها لا تطلب أكثر من الاهتمام والحماية والحنان ولمسة اليد .

لقد كان واضحا أن محسن قد قهر الدكتور نور تماما ، ولكن الدكتور نور كان يتوعد بكشف حقيقة هذا المجنون ، غير أننا ـ نحن الأزواج ـ خاب أملنا فى الدكتور نور ولم نعد نثق فى قدرته على مواجهة محسن .

* * *

فى اليوم الذى كان محسن وداليا يعيدان فيه تمثيل أول لقاء بينهما فى شارع الزهور ، قبضت الشرطة على محسن وهو يطارد داليا فى الشارع . وابتسم الدكتور نور وهو يقرأ أن البلاغ كان من مجهول .

. . عندما أحيل محسن إلى النيابة استمع المحقق إليه وهو يروى كيف أنه كان يعيد تمثيل مشهد أول لقاء بينه وبينه زوجته . واستنتج المحقق من هذه الرواية أن المتهم يعانى اضطرابا عقليا ، فأصدر قرارا بإحالة محسن إلى المصحة لملاحظة قواه العقلية تحت إشراف مدير المصحة . . الدكتور نور !



بين المرأة والرجل سوء تفاهم لاينتهى !

بل إن الحب نفسه قد يبدأ أحيانا بسوء تفاهم : كلمة منه . كلمة منها . . فعراك فاعتذار فابتسام فموعد فلقاء فزواج !

والحب أيضا يعتريه سوء التفاهم والخلاف ، وهذا الخلاف هو الذى يصنع التوابل العاطفية فيكسب الحب نكهته بالصد والهجر والعتاب والشكوى والتنهدات والأنين !

والخلاف التاريخى بين المرأة والرجل يتخذ شكل الحرب العنصرية حيث يرى الرجل أنه من الجنس الآرى أو السوبرمان ، فهو الأقوى والأعظم والأفضل والأنبل والأكثر ذكاء ، بينما ترى المرأة أنه من الجنس البربرى المتوحش المولع بالغدر .

وفى أحيان أخرى يتخذ الأمر شكل الاشتباك الحربى الذى تذاع بعده البلاغات العدائية الكاذبة فتسمع رجلا يقول بكل ثقة : إننى اتسامح معها لأن التسامح فضيلة الأقوياء ، وتدرك على الفور أن البلاغ كاذب لأن الرجل يقول هذه الكلمات وهو نزيل عنبر الكسور إثر نقله من البيت .

وفى معظم الأحيان تكون الحرب إعلامية ، حيث يحاول كل طرف أن يشرح معاناته وصعوبة الحياة مع الطرف الآخر وتضحياته من أجل مواصلة هذه الحياة . فهذا زوج يهمس فى أذن صديقه : إنه استدعى الطبيب لزوجته أمس بعد أن أصابها سعال وضيق تنفس وهرش مستمر فى يديها ، وتبين أنها حالة حساسية لأنها حاولت أن تفكر قبل أن تتكلم ، ونصحها الطبيب بعدم التفكير نهائيا قبل الكلام !

وفى الجانب الآخر ـ فى نفس المجتمع ـ تهمس هذه الزوجة فى أذن صديقة لها قائلة : إن زوجى قد يبدو لأول وهلة ثقيل الظل ، لكنك لو جلست معه وحاولت محادثته فسوف تموتين من الضحك لشدة بلاهته !

وتركز الحرب الإعلامية من جانب المرأة على جبروت الرجل وطغيانه .

هذا رجل ـ مثلا ـ توفيت زوجته ، وبعد فترة من رحيلها شعر بفداحة خسارته ، فسعى إلى تحضير روحها ، وما إن حضرت روح الزوجة حتى قال لها :

— كم أنا شقى بعد رحيلك !
— مسكين !
— طمئنينى .. هل أنت سعيدة فى العالم الآخر ؟
— جدا .
— أكثر سعادة مما كنت معى .
— طبعا .. لا وجه للمقارنة .
— إذن صفى لى الجنة .
— ومن قال لك إننى فى الجنة ؟؟

* * *

ومن قديم الزمان وكلمات الرجل تحاول النيل من المرأة ، ابتداء من الشاعر الرومانى فرجيل الذى قال : إن المرأة أصل كل بلاء ، إلى الكسندر دوماس الذى صاغ كلمات فرجيل بالمثل الذى ذاعت شهرته : فتش عن المرأة ، إلى المثل العربى الذى يقول : إن النساء حبائل الشيطان !

لكن المرأة تفوز دائما إذا كان الطرف الآخر فى الحرب هو آدم ! .. فقد يكسب آدم معركة ضدها ولكنه دائما يخسر الحرب ، سواء كان هذا الآدم جاهلا أو حكيما ، صعلوكا أو عظيما ، ضعيفا أو شمشونا .

فإن حكمة سليمان الحكيم لم تصمد طويلا أمام بلقيس ، ومارك أنتونى استسلم لقدره أمام كليوباترا ، ودليلة حولت أقوى رجل فى تاريخ البشرية من شمشون الجبار إلى شمشون الكانيش .

بل إن المرأة الشرقية ـ قبل أن تنال أى قسط من التعليم استطاعت وهى ترسف فى أغلال العصور الوسطى أن تترك كلمات باقية على الزمان ، بأن نفذت الى الأمثال الشعبية ، واتخذت منها أقوى سلاح تخوض به الحرب الإعلامية ضد الرجل .

ويتبدى ذكاء المرأة الشرقية الفطرى فى اللجوء إلى الأمثال الشعبية حيث نرى المثل مزودا بالموسيقى اللفظية التى تكفل له الانتشار والذيوع ، ونظرة واحدة إلى هذه المنشورات النسائية الخطيرة ـ الأمثال ـ تؤكد أن مؤلفها لا يمكن ـ بكل المقاييس ـ أن يكون رجلا !

هل من المعقول مثلا أن يكون مؤلف هذه الأمثال رجلا :

لولا جارتى لا نفقعت مرارتى ـ يغور الشهد من وش القرد . اللى يقول لمراته ياعورة تلعب بيها الناس الكوره ـ اللى يقول لمراته ياهانم يقابلوها الناس ع السلالم ـ بره وجوه فرشت لك وانت مايل وإيه يعدلك ـ الأم تعشش والأب يطفش ـ متجوزة عدس عازبه عدس ـ ياجارية اطبخى يا سيدى كلف ـ القرعة تتباهى بشعر بنت أختها ـ اللى ما تعرفش ترقص تقول الأرض عوجة ـ العقربة أخت الحية ـ تحت البراقع سم ناقع ..

مئات الأمثال تحمل بصمة المرأة وتدور حول اهتماماتها وهمومها ، ولعل ما ألجأ جدتى إلى ابتكار الأمثال هو ماكانت تعانيه من ظلم وهوان ، فقد كان بيت الزوجية ملكا خالصا ـ بمن فيه ـ للرجل ، الرأى رأيه ، والقرار قراره ـ وعليها أن تطيع وتمتثل دون أن يكون لها حق الاعتراض أو كما يقول المثل الذى أطلقته جدتى :

« مين يقدر يقول للغول عينك حمرا ياغول » .

ففى هذا المثل نرى جدتى تذيع منشوراً يحمل رأيها الصريح فى جدى وهو : أنه غول وعينه حمراء . وحش كاسر .

ومن الملاحظ أن هذه المنشورات أو الأمثال اهتمت اهتماما خاصا بقضية امتهان الرجل للمرأة وسحق كبرياء أنوثتها بالزواج عليها من أخرى ، إذ تبرز فى أمثال جدتى صورة « الضرة » أو الزوجة الثانية بشكل لافت للنظر ، فقد كانت الضرة هى الشبح المرعب فى حياة كل زوجة ، فحرصت الأمثال التى أطلقتها جدتى على توعية المرأة للوقاية من خطر الزوجة الثانية ، كالمثل القائل :

« قصقصى طيرك لا يلوف بغيرك » .

هذا المثل يعبر بوضوح عن استراتيجية نسائية ثابتة من قديم الزمان ، وهى أن فائض المال عند الرجل يدفعه إلى الزواج من زوجة ثانية ، فلابد من قصقصة ريشه ، أى تنظيف جيوبه أولا بأول .

وإذا فرضنا أن الرجل مستعمرة نسائية ترفع المرأة عليها علمها فلا جدوى من سيطرة المرأة على المرافق الهامة فى هذه المستعمرة : العقل والقلب والأعصاب ، ما لم تكن مسيطرة تماما على المحفظة !

كذلك من الأمثال التى أطلقتها جدتى للتوعية من خطر الزوجة الثانية مثل شعبى آخر ، شبهت فيه الرجل بمخلوق شديد النباهة والذكاء ، فقالت فى هذا المثال :

« لما يشبع الحمار يبعزق عليقه »

هذا تشبيه بليغ حقا ، فالحمار عندما يشعر بالشبع يظل يطوح رأسه إلى أسفل وإلى أعلى بكيس العلف المعلق فى رقبته فتتناثر محتوياته هباء وسدى .

لماذا يفعل الحمار ذلك ؟ لأنه حمار طبعا .

وفى حث المرأة على اتباع سياسة « قصقصى طيرك » أوضحت جدتى ـ فى مثل آخر أن أى شىء ـ مهما صغر ـ تأخذه الزوجة من زوجها هو مكسب ، فقالت :

« شعرة منْ جلدْ الخزير مكسب » .

طبعا معروف من هو الخنزير .

* * *

وقد استهدفت الأمثال الشعبية إحاطة كل امرأة علما بأن الزوجة التى تصبح لها « ضرة » سوف تجد نفسها طويلة اللسان قليلة الأدب لزوم الحرب الكلامية اليومية ضد « الضرة » ، فيقول المثل «

« توب الضرة مر ومن لبسه اتقل حياه » .

ومع ذلك فقد ورد فى أمثال جدتى أن « الضرة » إذا أخذت زوجا من امرأة أخرى ، فإن هذا يمكن أن يحقق معجزة طبية هى شفاء الزوجة إذا كانت مصابة بعاهة الخرس :

« خدوا جوز الخرسا .. اتكلمت » .

واضح طبعا من هذا المثل قوة الصدمة التى تحمل الشفاء لكل خرساء .

إن جدتى ـ فى قضية الزوجة الثانية ـ لم تنس أن تضع لكل موقف مثلا شعبيا من بداية المأساة الى نهايتها !

هذه مثلا السيدة « أم الخير » زوجة . وأم عيال ، فاتها أن تنفذ نصائح التوعية التى أطلقتها جدتى ، فلم تقصقص ريش زوجها ، وكانت النتيجة أن الزوج أحب بنتا صغيرة هى « عيشة : ونوى أن يتزوجها ، والجيران يضربون كفا بكف وهم يتساءلون بالمثل الشائع

المعروف :

« إيش جمع عيشه على أم الخير » ؟

.. أم الخير مذهولة لاتصدق الخبر ، إنها تضع يدها على خدها ودموعها تجرى ، تفكر فى فعلة الرجل الخسيس الذى اتخذت منه زوجا تزهو به على الناس ، وحصنا أمينا تعوذ به وتلوذ فى رحلة الأيام ، فإذا به يجعلها موضع الشماتة ، ويعبر المثل الشعبى عن موقفها هذا فيقول :

« خدتك لواذ ، خدتك عواذ ، خدتك أكيد العوازل كدت أنا روحى » .

.. إننا نرى الآن جارتها العاقلة المجربة تقبل عليها وتحاول أن تواسيها وتبث فيها الصبر الجميل فتقول لها هذا المثل الشعبى :

« العقل زينة لكل رزينة » .

وتردفه بقول مثل آخر :

« حرة صبرت فى بيتها عمرت » .

هكذا تنصحها أن تتمسك ببيتها ، وأن تفوت على الزوج رغبته فى أن تترك له البيت ليخلو له الجو مع « عيشة » . إنها تحذرها من التفريط فى بيتها الذى عليها أن تتشبث ولاتخرج منه إلا إذا طردت طردا :

« خليكى فى عشك لما ييجى حد ينشك » .

وتقتنع أم الخير وتبقى فى بيتها ، وشيئا فشيئا تبدأ تألف الموقف وتتعايش معه . أفاقت من الصدمة وبدأت فى شن الهجوم المضاد على الزوجة الجديدة التى لم تظهر بعد ، فتبدأ ـ عن طريق الأمثال ـ فى إذاعة نشرة عدائية بأوصاف عيشة عروس زوجها .

« عمشة وعرجة كيعانها خارجة » ـ « قرعة بمشطين وعورة بمكحلتين » « الكوع مدبب والوش مهبب » ـ « الوش وش ديك والحال ما يرضيك » .

وتأتى العروس الجديدة إلى البيت ، وجمع الزوج « عيشة » على « أم الخير » ، وابتدأ النكد الأزلى ، والسبب كما يقول المثل :

الغيرة مرة والصبر على الله » .

قضى الأمر ، ودخلت كل من عيشة وأم الخير مرحلة المواجهة .

نحن نرى عيشة أكثر هدوءا وتماسكا فهى الأكثر ثقة لأنها الأصغر والأجمل ، ولذلك فهى تنظر إلى أم الخير باستعلاء وهى ترفع حاجبا وتخفض آخر بينما أم الخير تقول لها :

« تاخدى جوزى وتغيرى ما تخيلى »

أى منتهى الصفاقة أن تأخذى زوجى منى ثم تغارين عليه منى . هنا تقول العروس الجديدة باستخفاف : أغار منك أنت ؟؟

تقول أم الخير : طبعا تغارين منى لأنك تعرفين المستقبل ، فما زواجه منك إلا نزوة عابرة سوف يعود بعدها إلى تائبا نادما :

« خلى حبيبى على هواه لما ييجى ديله على قفاه » .

هنا تنطلق ضحكة ساخرة من عيشة تهزأ بأم الخير التى تريد أن يحبها الزوج بالعافية .

« حبنى وخدلك زعبوط ، قال هى المحبة بالنبوت » .

والزعبوط رداء ريفى صوفى والنبوت هو العصا ، ومعنى المثل ان الحب لا يمكن أن يكون بالرشوة أو بالاكراه . ويعقب قول هذا

المثل ـ من جانب عيشة ـ ألفاظ غير كريمة موجهة إلى أم الخير خاصة بشهادة ميلادها وما يشاع من أنها كانت مرضعة خوفو .

وإذا ما طرحنا ردود أم الخير القاسية جانبا ، وجدناها تفحم عيشة بقولها :

« القديمة تحلى ولو كانت وحلة »

أى أن الزوجة القديمة مهما بلغ بها السن ومهما هجرها زوجها ، فإنها تحلو فى عينيه بعد ذلك ولو كانت فى قبحها كالوحل ، وكما يقول أبو تمام : وما الحب إلا للحبيب الأول .

غير أن عيشة لا تحارب فى جبهة واحدة ، فإن جارات أم الخير بحكم العشرة وبحكم كراهية الخطر المشترك ـ الزوجة الثانية ـ يمثلن جبهة أخرى معادية ، فما إن تظهر عيشة أمامهن حتى تتلقفها ألسنتهن غمزا ولمزا عبر الشرفات والنوافذ فهذه جارة تقول على مسمع من عيشة :

« ما يضايق الزريبة إلا النعجة الغريبة » . وهذه جارة أخرى تشرح وجهة نظرها فى جمال عيشة :

« قالوا للقردة اتبرقعى قالت ده وشى واخد على الفضحية » ، فترد الثالثة « خنفسة اتجوزت صرصار دار بيها البلد محتار » ، ويعلق صوت الجارة الرابعة مستفزا ، «الكلام لك ياجارة وانتى حمارة » .

فإذا ما فقدت عيشة أعصابها وحاولت الرد فسرعان ما تتلقى هذه الطلقة من الجارة الخامسة : « ياواخدة جوز المرة يامسخرة » .
غير أن عيشة لا تعتبر نفسها مسخرة ، بل هى كما يؤكد واقع الحال أميرة مدللة ، وهى بهذه المؤهلات صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة وأم الخير ـ فى رأيها ـ هى الجارية !

هذا الصراع على السيادة فى البيت يبرز بوضوح فى المثل القائل :

« لما انتى ست وأنا ست ، مين فينا اللى يكب الطشت » .

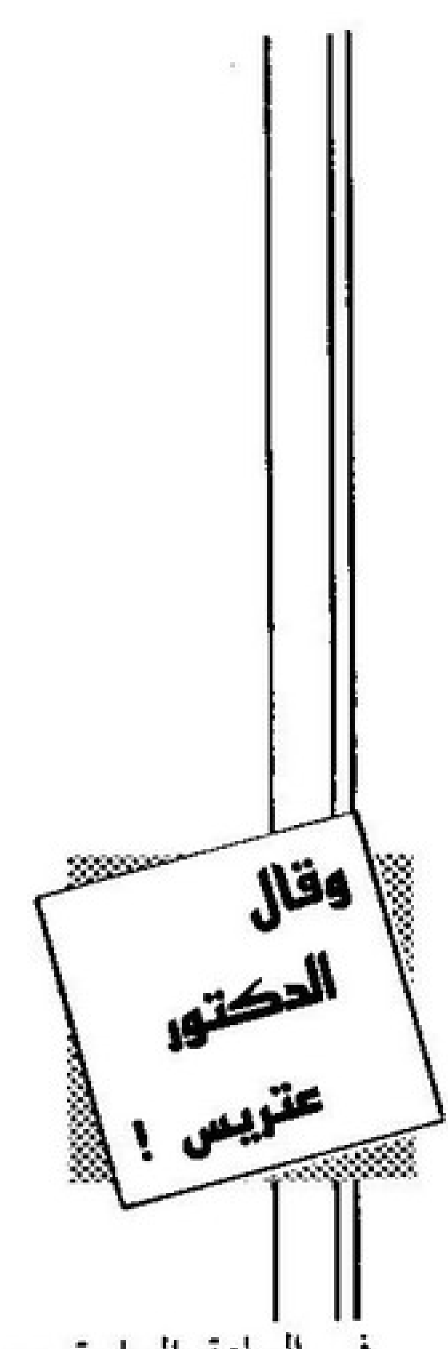
.. وتستمر الحرب الإعلامية ضد الرجل فى الأمثال الشعبية التى صنعتها المرأة ، تفتح نارا عليه ، وتفضح مثالبه ، وتشرح المشاكل التى يتسبب فيها بنزواته وطغيانه !

وهى حرب لن تهزم فيها المرأة ، أبدا فالمرأة لا تملك سلاح الكلمة فحسب ، بل إن دهاءها سلاح ، وهدوءها سلاح وضعفها الأنثوى الجميل أمضى سلاح ..

أنظروا مثلا إلى هذا المشهد .. رجل حانت لحظة احتضاره يمسك بيد زوجته التى عاش معها السنين ويستحلفها أن تغفر إهاناته وتعذيبه لها وضربه لها ، ثم أضاف وهو فى النزع الأخير :

— لقد كنت دائما متسامحة .. فسامحينى .
هنا نظرت إليه قائلة :
— متسامحة ؟! من تظن إذن الذى وضع لك السم فى المكرونة .

* * *



فى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم اكتشفت اننى أكلم نفسى ، ويبدو أن كلامى مع نفسى بدأ بصوت هامس ثم أخذ يتدرج فى الارتفاع حتى تنبهت إلى ذلك .

إن كثيرا من الناس يكلمون أنفسهم ، ولا يعرف الواحد منهم أن كانت هذه الحالة قد جاءته فجأة أم هى نتيجة طبيعية للزواج ومسئولياته ، لكننى أعرف جيدا لماذا أكلم نفسى ، فالفضل فى ذلك للبرنامج التليفزيونى « الوقاية خير من العلاج » . إن هذا البرنامج ـ الذى اكتشفته زوجتى ـ شجعنى لكى أكلم نفسى ، إذ استضاف طبيبا قال : إن من الطبيعى أن يكلم الإنسان نفسه أثناء التفكير ، فما التفكير إلا حوار بين الإنسان وذاته ، ولا مانع من أن يفكر الإنسان أحيانا بصوت مرتفع .

لقد اكتشفت أن الحوار بصوت مرتفع بينى وبين نفسى يعطى للألفاظ وضوحا أكثر للمعنى وقوة أكبر فى الاقناع ، ولقد اتاح لى خلو المنزل من زوجتى فرصة المناقشة الذاتية فى حرية تامة ، ولم يقطع مسار هذا الحوار المثمر إلا جرس الباب . ظننت أن زوجتى عادت من عند الطبيب ، ولكن الطارق كان جارى فؤاد . . وقد بدا عليه انزعاج واضح وهو يسألنى : من الذى تشتبك معه فى هذا العراك الصاخب ؟ . . فلما عرف أننى وحدى عاد يستفسر فى دهشة : إذن من الذى كنت تقول له مرارا : أنت حمار ؟

وإذا كنت يومها قد أخفيت عن جارى فؤاد أننى أتكلم مع نفسى ، إلا أننى أصبحت أفعل ذلك فيما بعد بدون خجل ، فبفضل زوجتى أصبح جيراننا جميعا ـ ومعهم فؤاد وزوجته ـ من أشد المقتنعين بهذا البرنامج النافع العظيم « الوقاية خير من العلاج » . كلنا ننتظر موعده ، وننصت إلى نصائحه ، ونستمد منه الوعى الصحى ، فنحن جميعا قد تجاوزنا منتصف العمر وأصبحت مشكلتنا الصحية هى مشكلة صيانة ، خاصة أن الدكتور عتريس ـ أحد نجوم البرنامج ـ ينبهنا دائما بعبارته المأثورة إن كل الأمراض تكمن داخل جسمك وكل مرض منها ينتظر أول فرصة له عند ضعف المقاومة أو المناعة أمامه .

لهذا أصبحنا نزور الأطباء كثيرا ، وفى أقل من شهر مثلا ذهبت

زوجتى إلى أخصائى جهاز هضمى ، وطبيب عيون ، وأخصائى غدد ، ثم أخصائى أنف وأذن وحنجرة ، صحيح أن نتائج الفحص والأشعة والتحاليل أثبتت أنه ليس هناك أى أثر لأى مرض ، وصحيح أننى بعت نصيبى فى قطعة أرض. ولكن هذا كله لا يهم ، فالحيطة واجبة .

ولعل أكثر ما شغل زوجتى بعد ذلك هو تلك البقعة الحمراء فى ظهر يدها التى نبه اليها طبيب الأمراض الجلدية فى البرنامج قائلا : عند ظهور هذه البقعة فعليك أن تقاوم الرغبة يحكها بأظافرك ، وسوف ترتفع درجة حرارتك ، فاعرض نفسك على الطبيب .

عقب انتهاء البرنامج ، لاحظت زوجتى وجود هذه البقعة الحمراء فى يدها ، وبدأت تقاوم بصعوبة الرغبة فى حكها بأظافرها ، وباتت الليل تعانى والترمومتر فى فمها يسجل ارتفاع نصف درجة .

فى اليوم التالى فشلت زوجتى فى الحصول على موعد قبل شهر عند طبيب الأمراض الجلدية الكبير . وتوسلنا ببعض الأقارب من أصدقاء الطبيب الكبير ، فرضى أن نحجز موعدا مستعجلا بمائة جنيه بعد أربعة أيام ، وفى خلال تلك الأيام الأربعة لزمت المسكينة الفراش تتألم ، وكلما توافد على غرفتها بالبيت وفد من الأهل أو الأصدقاء أرتهم البقعة الحمراء فى ظهر يدها وانخرطت فى البكاء .

وكثر كلامى مع نفسى فهو يكثر فى حالات الألم وحالات السرور . ثم زاد كلامى مع نفسى عن الحد المعقول عندما تأكد لى أن الطبيب استحق المائة جنيه عن جدارة ، فقد اكتشف أن النقطة الحمراء على ظهر يد زوجتى هى نقطة من مطهر المركروكروم ، سقطت على يدها أثناء استعمال الزجاجة ، وعندما عرفت زوجتى انها مركروكروم زال عنها الألم تماما وتم الشفاء والحمد لله .

* * *

على الشاشة الصغيرة ، ظهر الدكتور عتريس يردد كلمته المأثورة : إن كل الأمراض تكمن داخل جسمك ، وكل مرض منها ينتظر أول فرصة له عند ضعف المقاومة أو المناعة أمامه ، ثم انبرى بعد ذلك أخصائى يقول : من المعدة تبدأ كل الأمراض ، لكنك تستطيع أن تتقى شرها جميعا باللبن الزبادى . الزبادى صديق المعدة ، الزبادى يطيل العمر ، فلتكن وجبتك زبادى ، وبين الوجبة والوجبة زبادى .

وكان ولاؤنا للزبادى عظيما ، ولم يعد لنا من طعام سواه ، وعندما حدثت أزمة زبادى فى المدينة أدركنا أن جارنا فؤاد هو السبب ، فقد كان حريصا على أن يطيل عمره ، كان يتناول بين وجبة الزبادى ووجبة الزبادى وجبة ثالثة من الزبادى ، وبلغت دقته فى تنفيذ تعليمات طبيب البرنامج درجة عظيمة ، حتى أنهم نقلوه الى المستشفى واجروا له غسيل معدة ، وجاءت سيارات المطافىء لشفط كميات الزبادى من الشوارع المحيطة بالمستشفى .

* * *

ولقد كان برنامجا حافلا ذلك الذى قدمه ذات ليلة الدكتور عتريس . . سرد أنواع السموم التى يمكن أن يصاب بها الانسان خطأ ، وقدم معها الترياق المضاد لكل سم . وسجلت زوجتى هذه المعلومات النافعة على شريط فيديو ، واتخذت من هذا الشريط مرجعا تستذكر منه الأعراض المختلفة التى تظهر على الإنسان عند تناوله كل سم ، ثم طريقة العلاج ، حتى أنها أصبحت عليمة بكيفية علاج حالات التسمم بأملاح النحاس والصودا والبوتاسا الكاوية والليزول والاتروبين والكحول واليود والمخدرات وغيرها وغيرها .

ولقد انتهت مذاكرتها لهذا الشريط التليفزيونى بنظرة متأملة الى كلبها الصغير « تانجو » ثم ما لبث نظرتها إليه أن تحولت إلى فزع

يكسو ملامح وجهها وهى تنادى الكلب القابع أمامها : تانجو .. تانجو .

سألتها وقد رأيت الكلب لايستجيب للنداء :
ماذا به ؟
قالت يا مصيبتى ! واضح إن عنده أعراض تسمم بالكوكايين .
— كوكايين ؟
— لاشك .. أنه كوكايين .
— من أين جاء بالكوكايين . هل تعتقدين أنه يشم الكوكايين من خلف ظهرنا ؟
— أنظر .. هذه هى أعراض التسمم بالكوكايين .. اتساع حدقة العين .. الشحوب .. بطء التنفس .. سرعة النبض .. العرق البارد .
— ولكن الكلاب لا تعرق يا حبيبتى لأنه ليس لها غدد عرقية .. إنها تلهث بدلا من ...
قاطعتنى :
— هذا العرق بسبب الكوكايين ..

تجمع الجيران فى شقتنا يواسون زوجتى الباكية . وزادت حالتها النفسية سوءا لأن تانجو قاوم كل محاولات الاسعافات الأولية التى حاولت زوجتى أن تجريها له ، فرفض شرب فنجان شاى أسود قوى ، ولم يستجب وهى تحاول أن تساعده على التنفس الصناعى !

وأسرعت زوجتى بالكلب إلى الطبيب ، وبقيت فى الشقة مع الجيران ، وما لبث أن قال أحدهم :
كان يجب أن تكون حريصا فلا تترك الكوكايين فى متناول الكلب .

— ولكنى لا أتعاطى الكوكايين .
— فعلق آخر : يا رجل لا داعى للانكار .

وقال ثالث ساخرا : لا بد أن تانجو نزل إلى السوق واشترى لنفسه الكوكايين .

وقال الرابع : تصور أننى لم أشاهد الكوكايين فى حياتى :. أرنى ما شكله ولونه ؟ .. أريد ..

ولم يكمل الرجل عبارته ، فقد نهرته زوجته قائلة : هل وصل بك الحال إلى أنك تريد تعاطى الكوكايين مثل هذا الشمام ؟

كان حضور منى - زوجة فؤاد - إلى الشقة فجأة بمثابة انقاذ لى من ذلك الحرج القاتل والجيران يرمقوننى بنظرات رخيصة كشمام كوكايين . لقد جاءت منى تولول قائلة : إن زوجها يدور فى الغرفة بخطوات متثاقلة كفرانكشتاين ، ويتهته بكلمات غير مفهومة .

صاح جار يسألها : هل فمه يلعب ؟
قالت منى : إنه لايكف عن تلعيب فمه .. كيف عرفت ؟
قال الجار : هذا ما كان يتحدث عنه برنامج « الوقاية خير من العلاج » قال : إن هذه أعراض تيبس العضلات .

لم أعرف ما الذى جرى لفؤاد فى تلك الليلة ، فقد انفضوا جميعا من حولى واتجهوا إلى شقة فؤاد ، ومن نافذة المنور جاءت أصوات بعض الجيران الذين لا أعرفهم تتحدث عنى .. !! « كنا نظن إنه مجنون وهو يكلم نفسه . لم نعرف أنه يتعاطى الكوكايين » « طبعا هلوسة كوكايين » .

« فعلا .. قابلته فى الأسانسير مرة وكان فى حالةهذيان يحدث نفسه ويشير بيديه فى الهواء .. لعنة الله على المخدرات » .

عادت زوجتى وكانت سعيدة ، فقد فحص الطبيب تانجو وأكد لها أن الكلب ليس مصابا بأى تسمم ولكنه يعانى بعض الاكتئاب ، ولابد له من نزهة يومية .

اضطررت أن أقوم بهذه المهمة مع الكلب بعد أن لزمت زوجتى الفراش . فلقد فتحت زوجتى التليفزيون فوجدت رجلا اسمه الدكتور راتب يصف هذه الأعراض : الرغبة فى العزلة ، والضعف العام ، وافرازات من الأنف والفم .

ولزمت زوجتى الفراش وقد انتابتها هذه الأعراض ، لكنها لا تعرف اسم المرض لأنها لم تشاهد البرنامج من بدايته .

بناء على رغبة زوجتى ، اتصلت بالتليفزيون لأعرف عنوان الدكتور راتب الذى تبين أنه ظهر فى برنامج آخر غير برنامج الدكتور عتريس .

كان الدكتور راتب كريما ومهذبا .

— سألنى : متى ظهرت عليها أعراض المرض ؟

— منذ يومين .

— هل تراها ميالة إلى العزلة ؟

— جدا .

— وتعانى ضعفا عاما ؟

— أجل يا سيدى .

— وريشها ؟ هل هى منفوشة الريش ؟

— ولكن زوجتى ليس لها ريش ياسيدى .

— فهمت . . ! ياسيدى أنا كنت أتحدث فى التليفزيون عن مرض النيوكاسل الذى يصيب الدجاج ، فأنا طبيب بيطرى .



أسعدنى كثيراً أن تكون زوجتى فاطمة استاذة فى علم النفس ، فهى تستطيع أن تحلل كل تصرف من تصرفاتى ، إذا وقفت مثلا أمام المرآة فأنا مصاب بالنرجسية ، وإذا دخلت إلى حفل متأخرا عن موعدى واتجهت نحوى كل الأنظار ، فأنا عندى ميول استعراضية ، وإذا ألقيت كلمة واجبة فى حفل تكريم فأنا مصاب بحب الظهور ، وإذا لبست ربطة عنق حمراء . . فأنا متخلف ذوقيا أميل إلى الألوان البدائية ، وإذا حدثتها عن علم ارتياحى إلى شخص ما فأنا أعانى من البارانويا أو جنون الارتياب والاضطهاد ، وإذا غضبت منها لأمر ما فأنا ملىء بالعقد النفسية ، وإذا صالحتها شارحا مدى حاجتى إلى حنانها ولمسة يدها فأنا عندى ارتداد طفولى فى الشخصية .

وقد تركت للدكتورة فاطمة مهمة تربية الأولاد ، فليس أفضل منها فى معرفة خبايا النفس وتقويمها ، ورأيت أن أتفرغ تماما لعملى ، وقد حرمنى الانهماك فى العمل من أن أجالس أولادي ، ولا حتى أراهم ، إذ كنت أتعمد أن أغادر البيت صباحا قبل أن يستيقظوا وأعود وهم نيام ، وذلك حتى أتجنب أن يستمع الأولاد إلى ملحوظات أمهم بشأنى ويعرفوا أن أباهم مصاب بكل أمراض النفس والعقل ، ابتداء من الملانكوليا إلى جنون الهلاوس ، ثم فجأة وبلا تمهيد ، رجتنى فاطمة أن يتم التعارف بينى وبين الأولاد ، وأن أخصص لهم بعد ذلك جانبا من وقتى حتى تستقيم تربيتهم .

— هل فشل علم النفس ؟

— كلا . بل لابد من السلطة الأبوية ذات الهيبة ليحدث التوازن .

لم أفهم شيئا مما شرحته الدكتورة فاطمة إلا أنها أصبحت تخيف بى الأولاد ، وأن هذا التخويف أحرز نتائج لا بأس بها ، وقد شعرت بغبطة شديدة أن يكون فى هذا البيت من يخاف منى .

اشترطت على فاطمة ألا توجه لى أية ملحوظة أمام الأولاد تقلل من شأنى ، ويبدو أنها كانت في حاجة حقيقية إلى مساعدتى فأقسمت لى أنها لن تنبس بكلمة تغضبنى ، فإن أحوال الأولاد ـ فى رأيها ـ تقتضى أن أكون صارما مرهوب الجانب ، فهى تخشى من الأخطار المحدقة بالأولاد :

الولد الأكبر ـ تامر ـ استولت عليه هواية الرسم ، وطارق الذى يصغره يهوى كرة القدم ، وقد بكت أمه عندما سمعته يقول : ان خفرع هو جناح أيمن النقل البحرى ، أما سامح فيظهر عداء سافرا لعلم الجغرافيا ، وتقارير المدرسة عن الأولاد لا تسر ، وحتى الصغيرة مها تشكو منها دائما المشرفات فى روضة الأطفال .

جلست فى غرفة المعيشة أنتظر الأولاد الذين أمرتهم أمهم بأن يرتدوا أحسن ما عندهم للقاء بابا حتى توحى إليهم بمزيد من الرهبة والاحترام لى ، فملابس البيت العادية ـ فى نظر الدكتورة ـ ترفع التكليف بينى وبينهم ، وبعد قليل دخل الأولاد . حيونى باحترام بالغ فتعمدت أن أحييهم متجهما حسب أوامر فاطمة ، وأسعدنى أن الأولاد ليسوا مثلى ، إذ كان يبدو عليهم الذكاء .

ما إن اتخذ الأولاد مجلسهم حتى قالت فاطمة : بابا سيقضى الأمسية معنا ، فتبادل الأولاد نظرات هى مزيج من الحذر والتوجس ، بينما واجهنى سامح بابتسامة عريضة لم تغب عن وجهه منذ دخوله ، ونقلت الصغيرة مها بصرها بينى وبين صورة لى فى ركن الغرفة أظهر فيها بشارب كثيف ، فهمست لأمها بصوت سمعناه جميعا تسأل أين اختفى شاربى .

نظرت بملامح غاضبة نحو البنت ، وغيرت فاطمة موضوع الحديث بسرعة قائلة :مها كانت تريد أن تذهب اليوم إلى صديقتها دينا لمشاهدة القرد الذى اشتروه ، فقلت لها لا داعى اليوم لمشاهدة القرد مادمت الليلة ستشاهدين بابا .

أجلت النظر بين الأولاد بقسمات غاضبة وأنا أقول : ما هذا الذى أسمعه عن إهمالكم فى الدراسة ؟ . . اعتدل الأولاد يتأهبون للنقاش بينما ظل سامح على ابتسامته العريضة فوق شفتيه . ما حكاية هذا الولد ؟ اننى أخشى أن يكون متخلفا عقليا مع أن أمه تقول : انه صورة طبق الأصل منى .

وجهت حديثى الغاضب أسأل طارق ان كان خفرع جناح أيمن النقل البحرى ؟ وفى هدوء وثقة أجاب بالإيجاب ، فاشتد صياحى ليفهم أن خفرع أحد بناة الأهرام ، ورد طارق بنفس الهدوء بأنه يعرف أن خفرع أحد الفراعنة العظام ، ولكن هناك أيضا حسين خفرع لاعب الكرة ، وتساءل الولد : ما ذنبى أنا يا أبى إذا كان اللاعب قد اختار لنفسه هذا الاسم ؟

أخفيت هزيمتى بصيحة أخرى تستنكر هذه الهواية للكرة على حساب الدرس والتحصيل ، ثم قلت : لماذا لا تدركون قيمة العمل ؟ ألم ير أحدكم النملة وكيف تظل تشقى وتعمل فى مهارة وصبر ودأب إلى أن نرشها بالفليت فتموت .

قالت فاطمة : أرأيت السفسطة ؟؟

قلت فى حزم : دعينى أفهم ما يقول هذا الولد .

قال سامح : أقول ان النملة يجب أن نقتلها يا أبى . . فهى حشرة ضارة .

قلت : يا ابنى أنا أتكلم عن المهارة والصبر والدأب فى العمل .

قال طارق : ان اللص أيضا يتسلق المواسير فى مهارة وصبر ودأب .

صحت فيه : اخرس يا ولد .

افلاس . اننا أفلسنا أمام الجيل الجديد . لقد مر بخاطرى ما قاله ذات مرة الدكتور عيسى زميل زوجتى فى الكلية : ان كل جيل جديد يتحدث بلغة عصره . ان أولادنا لهم رؤيتهم الخاصة وأفكارهم بينما نحن لا نغير من أساليبنا التربوية البالية وأفكارنا القديمة التى تعجز عن مواجهة الأفكار الجديدة الوامضة .

أسرعت فاطمة تقول : ان بابا يتكلم عن المجهود الذى ينبغى بذله حتى يمكن الحصول على أفضل النتائج . . فقد كان أبوكم هو الأول دائما على أقرانه فى الدراسة . والحق أن هذه التحية من فاطمة راقتنى كثيرا ، فأسرعت أقول للأولاد : ذات مرة كان ترتيبى الثانى فاسودت الدنيا فى وجهى وعزفت عن الطعام وكدت أموت هما وحسرة .

قال طارق : الثانى ؟؟ ولكنه ترتيب مشرف يا أبى .

قلت رافعا يدى كى أسكته : كنت أرفض أن أكون غير الأول .

قال تامر فى أدب : طبعا نحن نعرف أن كل الآباء كانوا دائما من الأوائل ، كل أباء أصدقائنا وزملائنا كانوا من الأوائل وهذا طبيعى يا أبى ، فالتدريس فى الماضى كان أفضل ، كما أن مستوى الذكاء فى جيلكم كان ممتازا .

قال طارق ما عدا والد شريف .

قالت فاطمة : من هو شريف ؟

— ولد قليل الأدب .

— لماذا ؟

— ذهب إلى المدرسة التى درس فيها والده واستخرج من سجلاتها شهادة تثبت أن والده كان متخلفا فى دراسته ، وقد كان ينسب نفسه إلى باقى الأباء ويقول : انه كان الأول دائما .

داهمنى خوف غامض . ماذا لو ذهب أحد أولادى إلى المدرسة التوفيقية التى كنت أدرس بها وكشف عن سجلاتى ؟

قال تامر : ان كل الأباء كانوا من الأوائل فى الدراسة أما والد شريف فهو حالة استثنائية .

قالت فاطمة : لابد أنه كان غبيا .

قال تامر : بالتأكيد .

* * *

تلقيت إشارة خفية من فاطمة لكى تحدثنى خارج الغرفة . خرجت . انتحت بى بعيدا وهى تهمس : انت تعانى من سلبية الشخصية وتسلط من هم دونك على تفكيرك وسلوكك .

— أعرف ذلك ، فقد قلت هذا من قبل ، وقلت أيضا اننى سهل الانقياد أميل إلى التبعية لمن هم أقل منى شأنا .

— بالضبط .

— ولهذا كنت تابعا لك دائما . .

— لسنا الآن فى مجال شجار . أرجوك كن قويا مع الأولاد . ألم تقرأ فى تقرير المدرسة عن وقاحة تامر تجاه فطاحل الشعراء العرب وخلافه مع المدرس بشأنهم ؟ ألم تقرأ ما قاله سامح لمدرس الجغرافيا ؟

* * *

عدت إلى الغرفة أشن حملة صياح جديدة .

قال تامر : بالعكس . المتنبى والبحترى وأبو تمام عمالقة عظام ، لكنهم منافقون . ما من شاعر كبير إلا وقال قصائد المديح طلبا للمال ، فإذا لم يجزل له العطاء انقلب شتاما يهجو . هل هذه أخلاق يا أبى ؟ انهم يعلموننا أن النفاق يجلب المال والعطايا .

قال سامح : لقد سألنى المدرس ما هو شكل الأرض فقلت له : أن الأرض كروية ، فقال لى من أين جئت بهذا الكلام ، قلت له : من الكتاب ومن حضرتك ، فسألنى أفرض اننى قلت لك أن الأرض مربعة ، وقرأت أنت فى الكتاب أن الأرض مربعة ، فكيف تثبت أن الأرض كروية ؟ قلت له : كيف أثبت انها كروية وهى مربعة ؟ فقال لى : أنت جحش . قلت له : الجحش هو الذى يحاول أن يثبت أن الأرض كروية إذا قالت الكتب أنها مربعة . وهنا غضب المدرس .

سرحت بخواطرى . ان ردود الأولاد التى تشكو منها المدرسة لا يمكن أن تشكل اتهاما للأولاد بالتقصير بقدر ما تشكل جمودا وعجزا على الجانب الآخر ، ويبدو أن ابتسامة افلتت منى ـ مع هذه الخواطر ـ شجعت تامر على أن يقول : الحق يا أبى نحن نعتز بك ، ولهذا نريد شهادة من شهاداتك الدراسية نعلقها فى غرفتنا لتكون شرفا عظيما لنا وحافزا لكى نقتدى بك كأول زملائك فى التفوق الدراسى .

بحثت بسرعة عن رد ينقذنى من هذا المأزق ، وقبل أن أجد الرد ، جاءت الصغيرة مها بمفاجأة اجتذبت الاهتمام كله ، إذ سألتنى :

هل ستأتى معى غدا إلى المدرسة ؟

أفصحت مها عن خبر يذاع لأول مرة وهى أن المشرفة طردتها من روضة الأطفال وحتمت عليها ألا تعود بغير صحبة ولى أمرها .

— لماذا ؟

لقد كانت « الأبلة » تحكى للأطفال حكاية على بابا والأربعين حرامى ، وعندما أتمت الحكاية سألت مها « الأبلة » :

— هل استولى على بابا على كنوز اللصوص ؟

— أجل .

— ألم يسرق اللصوص هذه الكنوز من الناس .

— هذا صحيح .

— إذن فعلى بابا لص لأنه استولى عليها لنفسه ولم يسلمها إلى الشرطة .

— كلا .. على بابا رجل طيب .

— بل هو حرامى .

وانتهى الحوار بطرد البنت من الروضة !

لقد كان وقع المفاجأة عنيفا على فاطمة . إذ نظرت إليها من وجهة اختصاصها كأستاذة فى علم النفس ، فرأت أن الطفلة تعانى أزمة نفسية لأن الأبلة تبرىء على بابا من السرقة ، وأصرت فاطمة على أن مها لابد أن تعرف أن على باب سوف يلقى جزاءه ، وأنه لن يترك طليقا يتمتع بأموال الناس المسروقة هو وزوجته الست مرجانة .

قالت فاطمة : فكرت فى اجراء صغير لابد منه .

قلت : ما هو ؟

قالت : نصحب مها إلى قسم الشرطة ونتفق مع الضابط على تحرير محضر سرقة ضد على بابا ، ثم يتكلم الضابط فى التليفون يأمر بالقبض على « على بابا » .

* * *

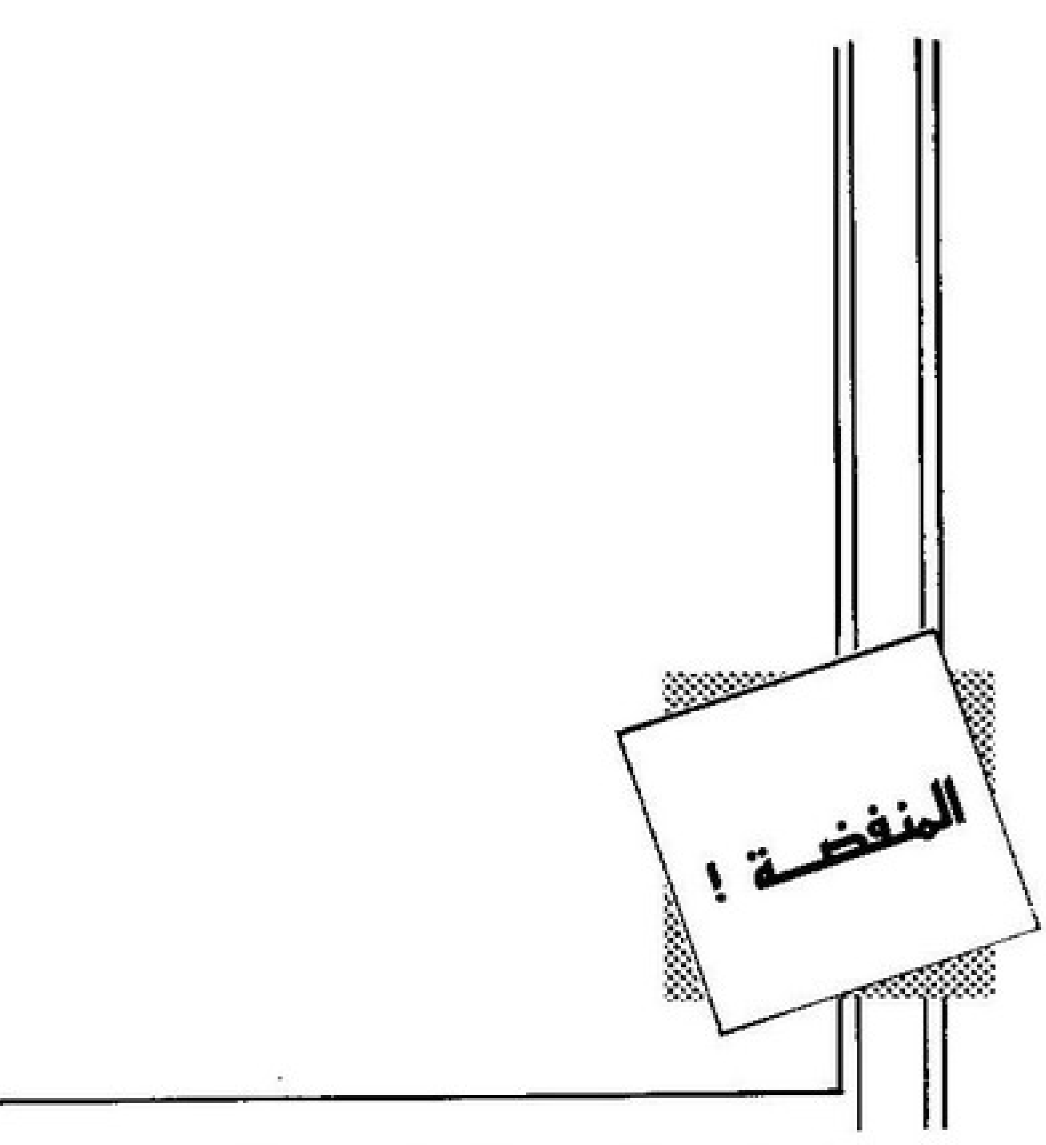
وقفت فاطمة مع مها خارج قسم الشرطة حتى لا ترى الصغيرة أو تسمع ما سوف اتفق عليه مع الضابط ، ودلفت الى المبنى وقادونى إلى غرفة الضابط فقلت له : أريد تحرير محضر سرقة لعلى بابا .

— على بابا من ؟

— على بابا الذى استولى على كنوز الناس من الأربعين حرامى .

وضحكت تمهيدا لأن أشرح له الموضوع ، لكن الضابط الذى كان يبدو عليه الإرهاق ضرب المكتب بيده داعيا الله أن يرحمه من أمثالى ، وفى أقل من لمح البصر فوجئت بالشرطى العملاق الواقف بالباب يكمم فمى ويشل حركتى والضابط يأمره بوضعى فى الحجز تمهيدا لترحيلى إلى مستشفى الأمراض العقلية .

* * *



كانت السهرة في النادي بريئة حقا ، ومع ذلك فقد انهمكت خلال عودتي إلى البيت في إيجاد قصة مناسبة لزوجتي أبرر بها رجوعي في الواحدة صباحا . فاللقاء بأعز رفاق الدراسة في الجامعة حدث بالصدفة وبلا ترتيب سابق ، وقد كان ينبغي أن أتصل بزوجتي تليفونيا ، ولكن الذكريات المرحة جرفتنا حتى جاوز الوقت منتصف الليل .

ماذا أقول لزوجتى ؟؟ . . صديق أصيب بأزمة صحية واضطررت لحمله إلى المستشفى ؟ مثل هذه القصة قديمة جدا ، فلقد كثر الأصدقاء الذين يصابون بأزمات صحية ليلا ، وكثر الأصدقاء الأوفياء الذين يصحبونهم إلى المستشفى حتى الصباح . ثم إن زوجتى لا تحب الكذب ، وهى لا تكذب ـ كما تؤكد لى ـ إلا إذا اضطرت أن تمتدحنى أمام الناس .

هل أقول لها إن السيارة تعطلت بى ؟ أكذوبة جاهزة دائما على لسان كل زوج يتأخر عن موعد العودة . فلأبحث عن اكذوبة متقنة فيها تفكير ومعاناة . إن كل الناس يكذبون والذين يبدون صادقين هم الذين يحسنون الكذب .

فجأة . . ابتسمت فى دهشة !

كيف فاتنى هذا ؟ كيف غاب عن خاطرى أن زوجتى قد سافرت مع الأولاد عصر اليوم إلى المصيف ؟ غمرنى إحساس بالارتياح لإعفائى من الكذب . فالكذب عبء ثقيل كالحقيقة .

ودخلت البيت وأضأت الأنوار ، ورحت أتجول من الصالة إلى الصالون إلى المطبخ إلى غرفة المعيشة ، وما أن لمحت منفضة السجاير البرونزية ذات الفارس على ظهر جواده ، حتى اتجهت نحوها . هذه المنفضة رأتها زوجتى فى واجهة متجر . استطلعت رأيى فيها ، تعجبنى جدا يا زوجتى العزيزة . دخلنا المحل وابتاعتها . كانت سعيدة بها حقا .

فى البداية رجتنى زوجتى ألا أطفىء فيها سجائرى .

لماذا ؟

— هناك « منافض » كثيرة تستطيع أن تستخدمها فما الضرورة لاستعمال هذه المنفضة ؟

لم ألق بالا إلى رجاء زوجتى . وما لبث رجاؤها أن تحول إلى

فعل امر ، ثم تصاعد فعل الأمر إلى إنذار . وفى المرة الأخيرة ـ منذ عام مضى ـ حدثت أزمة حادة قاطعتنى معها زوجتى لأننى أطفأت سيجارة فى هذه المنفضة .

والحق أننى لم أفهم زوجتى ، فهناك فترتان هامتان يعجز الرجل فيهما عن فهم المرأة : فترة ما قبل الزواج ، وفترة ما بعد الزواج .

ولقد سعيت من جانبى لإزالة هذه الجفوة ، واكتشفت أن زوجتى كانت شديدة التأثر من تصرفى . ناقشتها . وكما يحدث دائما فى كل مناقشة ، كانت الكلمة الحاسمة الأخيرة لى وهى كلمة « كما تشائين » .

وتعهدت لها بألا أطفىء سيجارة فى هذه المنفضة البرونزية ، وشغلنى بعد ذلك اهتمام زوجتى البالغ بأن تكون العلاقة مقطوعة تماما بينى وبين هذه المنفضة . كنت إذا سرت إلى الشرفة ـ فى اتجاه المنفضة ـ سارت زوجتى خلفى بضع خطوات ثم توقفت لترى إن كنت سألقى برماد السيجارة فى المنفضة أم لا . وكانت إذا خرجت مع الأولاد وتركتنى بمفردى ، رجتنى أن أعتنى بالكلب ، وألا أتركه يتجه نحو المنفضة . ماذا بحق السماء بمكن أن يفعل كلب بمنفضة برونزية ؟؟ كنت بالطبع أدرك معنى هذا التحذير الموجه للكلب .

* * *

أصبحت هذه المنفضة شيئا بغيضا فى حياتى وعندما همست بمتاعبى إلى صديقى يوسف لامنى كثيرا . . اعتبر أننى استسلمت مبكرا جدا فى معركة المنفضة . إنها ليست معركة منفضة فى رأيه ، إنها قضية سيادة الرجل على البيت ، وما كان ينبغى أن أفرط فى حقوقى بهذه السهولة .

ونصحنى يوسف بأن أفجر المعركة من جديد وأن اتشبث بحق استعمال المنفضة ، وأشار إلى كتاب لمؤلف فرنسى أو صانى بقراءته اسمه « الرجل سيد المرأة » . ساذج والله يوسف هذا .

إن كتابا اسمه الرجل سيد المرأة لا يمكن أن يوجد إلا فى المكتبات التى تبيع كتب القصص الخيالية .

غير أن كلمات يوسف حفزتنى إلى وجوب إعادة بحث موضوع المنفضة مع زوجتى . . لابد من أسباب جدية تبرر حرمانى من استعمالها .

والأرجح أننى سوف أفلح فى إقناع زوجتى ، ومهما قيل إنها تجيد الاستماع لى لكى تقف على التناقضات الصارخة التى تتضمنها أكاذيبى ، فهى فى النهاية مستمعة جيدة لى . ولقد اختلست السمع مرة وهى تتحدث إلى صديقة لها فقالت وهى تزهو بديمقراطيتها : كثيرا ما اختلف مع زوجى فى الرأى ، ولكن عندما أكون على الحق فهو يوافقنى فورا . فلما سألتها صديقتها : وإذا كان هوعلى حق ؟ قالت زوجتى : عمره ما كان على حق ولا مرة .

لعلنى هذه المرة أقنعها بأننى على حق .

عندما تهيأت لإعادة مناقشة قضية السيادة أو المنفضة وأعددت التمهيد الدبلوماسى الذى سوف افتتح به المناقشة . دخلت زوجتى الغرفة تقول فى لهجة هادئة ولكنها تخفى الكثير من التوتر :

— هل استعملت المنفضة ؟

لأننى برىء ، فقد قلت فى تلقائية : أبدا والله العظيم .

ولأن زوجتى ظلت تنظر إلى لبرهة غير مصدقة ، فقد عدت أقسم لها أننى لم استعمل المنفضة ، وبدا أنها صدقتنى ، إذ استدارت خارجة تغمغم : غريبة ! خيل إلى أن بعض الرماد عالق بها .

خيل إليها ؟؟ !

بعد هذا الموقف من جانبى ، قررت شطب قضية المنفضة أوعلى أحسن الأحوال تأجيلها إلى أجل غير مسمى .

فى تلك الليلة الأولى لسفر زوجتى والأولاد إلى المصيف ، أصابنى فضول شديد وأنا أحدق عن قرب فى المنفضة المحرمة . إن المنافض الأخرى التى نصحتنى زوجتى باستعمالها ثمينة حقا إذا قورنت بهذه المنفضة ، فلماذا تحرمنى منها ؟

شعرت بإغراء قوى أن أشعل سيجارة وأن ألقى برمادها فيها ، غير أننى قاومت ، وأنسحبت بصعوبة إلى غرفة النوم ، وفى الفراش ، شعرت برغبة جارفة فى العودة إلى المنفضة ، ولكن النعاس غلبنى .

فى الصباح جاءت أم سليمان لتنظيف البيت . وكنت جالسا أمام المنفضة المحرمة وفى يدى سيجارة عندما جاءت السيدة العجوز بقهوة الصباح . فوجئت بها تتجاهل المنفضة البرونزية أمامى مباشرة وتضع بجوارها منفضة سجاير بللورية وهى تقول : لكى تطفىء فيها السجاير .

ما هذا الذى حدث ؟ هل خولت زوجتى سلطاتها المنزلية إلى أم سليمان ؟؟ لم أشأ أن أتحقق من ذلك ، فليس من اللائق أن أنزل بقضيتى إلى هذا المستوى .

إن هذه المنفضة اللعينة لم تعد تغيب عن بالى . حقا إن كل الأمور نسبية : عندما يكون الإنسان فى جلسة مرتخية هادىء البال ، تنزع أفكاره إلى أمنيات بعيدة يتطلع إلى تحقيقها ، وعندما يعترى نفس هذا الإنسان ألم فى ضرس تالف تصبح أعز أمانيه أن يتوقف هذا الألم .

لقد باتت أمنية عزيزة وغالية أن استعمل هذه المنفضة كيفما شئت . وعندما بدأت أختفى عن عيون الأصدقاء فى سهرات الليل طافت برؤوسهم الظنون ، فاعتقدوا أننى أسىء استغلال الحرية أثناء سفر زوجتى باعتبار أن الزواج قرار بتحديد إقامة رجل فى مكان تحكمه امرأة وتفرض على هذا الرجل سياسة منع التجول فى المدينة بعد السادسة مساء . ولم يطف بذهن واحد من هؤلاء الأصدقاء أننى كنت الزم البيت فى محاولات فاشلة لكسر حاجز الخوف واستعمال هذه المنفضة ، وليكن ما يكون .

.. حتى كانت تلك الليلة التى حسمت فيها أمرى وقررت التنفيذ ، وفى اللحظة التى اشعلت فيها السيجارة التى سوف ألقى بها فى المنفضة دق جرس التليفون .

وجاء صوت زوجتى من بعيد . ثم قالت لى بعد التحيات والأشواق وأخبار الأولاد :

— ماذا تفعل .

— كما ترين .. فى البيت .

— أين تجلس ؟

— ...

— لا بد أنك أمام المنفضة البرونزية لتذكرك بى . فأنت تعرف أنى أحبها .

— طبعا طبعا ..

أنت أمام المنفضة ؟؟

— أنا أمام المنفضة .

وجدت نفسى التقط من المنفضة البرونزية عود الثقاب الذى أشعلت به السيجارة ، وبحركة لا شعورية دسسته فى جيبى وكأننى أخفيه من زوجتى التى واصلت حديثها .

— هل تدخن ؟

— هه ؟ . . أجل . . ولكن أقسم بالله لا استعمل المنفضة . .

دخل صوت عامل التليفون يقول : المحادثة انتهت .

فعلا المحادثة انتهت فى قضية المنفضة ، القضية نفسها انتهت . ونهضت لأرتدى ثيابى وخرجت .

* * *

لقد أتيتم بى إلى هنا فى هذه الندوة لأشرح لكم كيف حدثت المعجزة وكيف قهرت إرادتى كل الحواجز . إننى سردت لكم القضية بالتفصيل لأصارحكم بأن الأمر لا ينطوى على بطولة أو عزيمة جبارة ، فقد كان الحل الوحيد لإنقاذى من محنة المنفضة المحرمة هو أن أقلع عن التدخين .

هكذا أقلعت عن التدخين !

***



من المشاكل الأليمة التى قد تصادف الزوجة حالة الخرس المنزلى التى قد تصيب الزوج بعد فترة من الزواج ، إذ يفقد الرغبة فى الكلام داخل البيت ، فإذا ما تجاوز حدود البيت الجغرافية . . انطلق لسانه بالحديث مع الأصدقاء وغير الأصدقاء .

وعندما كتبت عن هذا الخرس المنزلى أول مرة ، قرأ على أمين المقال ثم قال لى : هذا موضوع حيوى جدا ولكن لا يكفى أن تكتب عن الداء بل عليك أن تصف الدواء .. إن الزوجات المعذبات بصمت الأزواج لاحصر لهن ، ففكر فى روشتة لعلاج الزوج المخروس .

كان الذى دفعنى إلى الكتابة عن الخرس المنزلى يومها حالة قريبتى أمينة وزوجها يوسف .. لقد سبق زواجهما غرام نارى .. فى الجامعة كان يوسف لا يكف خلاله عن الهمس والمناجاة ، ولم تكن أمينة تسمع صوته فقط ، بل كان يبث لها إرساله الغرامى بالصوت والصورة : يسبل جفنيه كالحالم ، ويفتح ذراعيه فى حنين ، ويبسط كفيه فى حيرة .. وتتبدى فى عينيه نظرة الملتاع وهو يهمس إليها بأحلى الكلام !

بعد سنتين من ليلة الزفاف ، بدأ إرساله العاطفى يضعف شيئا فشيئا ، وبدأ صوته يبطؤ وكأن بطارياته فى النزع الأخير .. وفى الماضى الأول كانت كلمة أحبك كنبض قلبه .. يدق بها فمه كل ثانية .. وفى الماضى القريب أصبح كساعة الحائط ، ويدق بكلمة أحبك كل ربع ساعة ، ثم كل نصف ساعة ، ثم كل ساعة ، ثم أختفت الكلمة من شفتيه ، وما لبث أن اختفى من فمه الكلام كله !

أدركته سكتة اللسان المنزلية .

وأصبحت أمينة تكلم نفسها فى البيت ، فالحديث من طرف واحد : تتحدث وتقول وتعيد القول لعله يخرج عن صمته .. أبدا ، استعاض عن تعبير اللسان بهزة رأس لاتعرف هى معها إن كان رده إيجابا أم سلبا ، إذا سألته الرأى فى التسريحة الجديدة هز رأسه . وإذا سألته هل يفضل التسريحة القديمة هز رأسه . وإذا حاصرته بالأسئلة وأرادت أن تعرف بالتحديد هل التسريحة تعجبه أو لا تعجبه .. جاءها صوته يعلن شخير النوم !

الشىء المحير .. أنه كان يحبها جدا ! إذا أصابتها وعكة ظل جالسا إلى جوار فراشها ، مرة يربت على كتفها ، ومرة يلثم كفها ، ومرة يحكم الغطاء من حولها ،وليس على لسانه طوال هذا كله إلا : سلامتك ياحبيبتى .. سلامتك يا حبيبتى ..

قلت لأمينة : على أمين عنده فكرة رائعة لانتزاع يوسف من صمته .

— اسعفنى بها أرجوك .

— أن تثيرى موضوعا يحتمل وجهتى نظر ، خذى جانب وجهة النظر الضعيفة فهذا يشجعه ويفتح شهيته للكلام .

— مثل ؟ !

— فكرت قليلا ثم قلت لها : عقوبة الإعدام مثلا .. هل نبقى عليها أو نلغيها .. هذا مجرد مثل طبعا وليس بالضرورة أن تثيرى مناقشة حول عقوبة الإعدام .

* * *

قالت لى أمينة فى سعادة : اختلقت المناسبة وبدأ النقاش من طرف واحد طبعا . تتابعت هزات رأسه ، وكاد كل شىء ينتهى لحظة أن بدأت ، فقد فهمت أنه يؤيد أيضا عقوبة الإعدام ، غير أنى استطعت أن أواصل الحديث بشكل آخر ، وأعتقد أننى نجحت .

— هل تناقش معك ؟

— كل الدلائل تؤكد أنه سوف يشتبك معى فى جدل عظيم .
لقد مضى يومان وأنا أحدثه عن عقوبة الإعدام ، وكم أنا سعيدة بهذا الموضوع الذى سوف أستمر فيه ، فهو يستمع إلى حديثى بدهشة بالغة مرددا : اسكتى يا أمينة .. لا تقولى هذا .. غير معقول !

* * *

عندما التقيت بيوسف كان شديد الاكتئاب . قال لى : اننى أشعر بقلق بالغ بسبب أمينة فقد مضت عليها أيام ولا حديث لها إلا عن عقوبة الإعدام . إن الموت بالشنق أو بالغاز أو بالمقصلة أو بالكرسى الكهربائى عقوبة غير رادعة فى نظرها . لأنها تنهى حياة المجرم بسرعة دون أن يتألم .. أننى أرتاع وهى تصف لى كل يوم طريقة تعذيب جديدة من ابتكارها لقتل المجرم ببطء خلال أيام . لقد كنت استمع اليها وأنا مذهول . إنها فى منتهى الوحشية ولم أكن أعرف ذلك .. هل من المعقول أن تكون أمينة الرقيقة الوادعة ذات نزعات عدوانية دموية على هذه الصورة المخيفة ؟

* * *

فى الصباح التالى حاولت أن أقنع أمينة بالعدول عن الحديث عن عقوبة الإعدام لأنه موضوع سخيف ، ولكننى فشلت . فقد رأت أن هذا الموضوع قد نجح فى استفزازه للمناقشة ومن المفيد أن تستمر فيه .

قلت لها :

— يا أمينة .. يوسف أصبح ينام فى الغرفة الأخرى .

— وما شأن هذا بموضوعنا .. إنه ينام فى الغرفة الأخرى هربا من صوت المكيف .

— كلا . قال إنه يخاف أن تقتليه وهو نائم ..

— ماذا تقول ؟

— يوسف يعتقد أن لديك ميولا عدوانية كامنة يمكن الشفاء منها لو توصل الطبيب إلى جذورها .

* * *

قال لى على أمين : متى ستكتب روشتات علاج الخرس المنزلى ؟

كتبت فى صفحة المرأة أول روشتة للعلاج فاتصلت بى قارئة وقالت بعد المقدمات : لقد كتبت تقول : يمكنك يا سيدتى أن تخلقى حديثا مرحا بينك وبين الزوج الصامت كأن تسأليه مثلا : ماذا تفعل لو هبط عليك مليون جنيه ؟ ما هو المشروع العاجل الذى تبدأ فى تنفيذه ؟ وما هى الأمنية بعيدة المنال التى يمكن أن يحققها لك بعض هذا المليون أو كله ؟

قلت للقارئة لأعرف ماذا تريد بالضبط : أرجو أن أكون قد وفقت فى هذه الروشتة يا سيدتى .

— الحق ان زوجى كان يجلس معى أبكم تماما . . وما أن طرحت عليه سؤال المليون جنيه حتى برقت عيناه وبدأ يتكلم .

الحمد الله . مبروك ياسيدتى .

— بل لقد تجاوز مرحلة الكلام فاحتدم بيننا جدل عنيف حول المليون جنيه .

— وهذا هو المطلوب .

— تصور إنه رفض أن يقتسم معى المليون جنيه .

— ولا بد أن هذا أضفى على المناقشة حيوية خاصة . .

— حيوية خاصة ؟ لقد تركت له البيت إلى بيت أبى . . ما هذه الكتابات التى تكتبها لقد خربت بيتى الله يخرب . .

انتظرت السيدة ردا منى لكننى لم أرد . ظلت تقول : آلو . . آلو ولم أرد . . سمعتها تقول لأخرى بجوارها : تصورى الخط انقطع قبل أن ألعن سنسفيل جدوده .

* * *

اتصلت قارئة أخرى تسأل : هل أنت الذى كتبت سؤال المليون جنيه ؟

ترددت قليلا بعد التجربة السابقة ثم قلت : كلا يا سيدتى هو زميل لى . .

وألحت السيدة فى معرفة اسم هذ الزميل فاخترعت لها اسما هو : جمعة عمران .

— وأين الأستاذ جمعة عمران .

— ما ت هذاالصباح .

قلت بعد تلقى عزائها :

— خيرا يا سيدتى ؟

—. . . أعتقد أن المرحوم جمعة كان يعرف جانبا من قصة حياتى فإن ما كتبه هو نفس السؤال الذى طرحته على زوجى ذات يوم : ماذا تفعل لو هبط عليك مليون جنيه ؟ . . فرد قائلا : اشترى لك بيتا صيفيا فى بورتوفينو حيث قضينا شهر العسل وأسميه « مملكة الحب » . .

ثم قالت السيدة : ولقد صار زوجى مليونيرا بالفعل .

— مبروك بيت بورتوفينو .

— كلا . لم يشتر بيتا فى بورتوفينو .

— ماذا فعل إذن بعد المليون ؟

— تزوج السكرتيرة .

* * *

جاء فى الروشتة السابعة التى كتبتها لعلاج الخرس الزوجى : اختلقى المناسبة واطرحى على زوجك سؤالا مرحا : فى أى عصر كنت تتمنى أن تعيش ؟ العباسى ؟ الفرعونى ؟ الرومانى ؟ الأندلسى ؟ . . ومن هى الشخصية التاريخية التى كنت تود أن تكونها ؟

اتصلت بى قريبتى أمينة فقلت لها : ابعدينى عن المتاعب من فضلك ولا تطلبى منى رأيا أومشورة .

قالت : بل جئت أشكرك فقد عاد يوسف إلى حالة الصمت

ولكن الحمد لله ، إذ أوحت لى الروشتة السابعة بفكرة : فقد نظرت إلى يوسف بعد انتهاء برامج التليفزيون وقلت له :

— هل تعرف أنك شديد الشبه بمارك أنتونى ؟

— من ؟؟!

— مارك أنتونى .

— وأين رأيت صورة مارك أنتونى ؟

— لا تنس أنى خريجة قسم تاريخ . . وأذكر أن المؤرخ بلوتارك وصف ملامح مارك أنتونى . . تماما هو أنت بالضبط ! كيف فاتنى أن أقول لك هذا ؟ . . آه لو عشنا عصر مارك أنتونى !!

— وتكونين أنت كليوباترا طبعا . . لكن خبرينى : ماذا يقول بلوتارك عن ملامح مارك أنتونى ؟

— يقول عيناه تشعان ذكاء داهما . تضاريس وجهه تعبر عن قوة الشخصية المسيطرة فى جمال رجولى ساحر . . هذا هو أنت !

— أترين فى عينى الذكاء الداهم ؟

— بل هو يضوى فى عينيك كبريق الماس .

ضحك يوسف فى سعادة ثم قال :

— لم تقولى لى ذلك إلا مرة واحدة عندما كنا خطيبين . كنا على صخرة سيدى بشر فى الاسكندرية وقلت لى : لم أر عينيك أبدا فى الضوء الساطع . أرنى مالون عينيك ، ثم نظرت إلى عينى وقلت لى : إن فيهما ذكاء حادا .

عجبت حقا أن يتذكر يوسف المكان والزمان ونص الكلمات إذن . . فليس الغوانى فقط اللاتى يغرهن الثناء . . الرجال أيضا . لقد أصبح يوسف شديد الولع بإطراء ذكائه .

وأردفت أمينة . إنى أنصحك بأن تكتب الروشتة الثامنة بعنوان : حدثى زوجك عن ذكائه .

قلت لها : أوافقك تماما ، فإن الحبيبين يظلان متعلقين ببعضهما

البعض فى غرام شديد لأن كلا منهما لايتحدث عن نفسه ، بل يتحدث عن عظمة الآخر ، وبعد الزواج يبدأ كل منهما فى التحدث عن نفسه ، عن عظمته الشخصية ، فيفقد الحديث ـ بالنسبة للطرفين ـ سحره وجاذبيته .

* * *

مضت مدة طويلة لم أر فيها أمينة ، وعندما التقيت بها كانت حزينة دامعة العينين .

— مشكلة الخرس أيضا ؟؟

— بالعكس . انتهت مشكلة الخرس تماما .

— ماذا إذن ؟؟

— لقد أصبح يوسف مفتونا بحديثى عن ذكائه . ذات يوم قال لى : هل تذكرين ما قاله بلوتارك عن مارك أنتونى ؟ . . كنت قد نسيت القصة كلها ، وتذكرت بصعوبة أننى قلت له أن بلوتارك وصف مارك أنتونى بكذا وكذا ، ولكننى لم أتذكر ما قلته على لسان بلوتارك فى وصف القائد الرومانى ، فقد كان الوصف كله من اختراعى ، بل إن المؤرخ بلوتارك ـ فى الحقيقة ـ حمل على مارك أنتونى وكليوباترا وكان يأخذ عليهما قلة الأدب والسوقية وهما يتبادلان النكت البذيئة بصوت مرتفع .

المهم أن يوسف أنقذنى من الحرج فبادر بذكر ما قلته له نقلا عن بلوتارك من أن عينى مارك أنتونى كانتا تشعان ذكاء داهما وكان وجهه رجوليا ساحرا . .

وأضافت أمينة : إلى هذا الحد أصبح يوسف مولعا بإطراء ذكائه ، ثم أصبح يروى لى قصصا عن ذكائه . وكانت قصصه ممتعة وباهرة وهو يحكى من خلالها عن مواقف وضعته فيها الظروف ، وكان ذكاؤه هو السلاح الماضى فى تلك المواقف ، كم كنت فخورة

وهو يروى تلك القصص ، إلى أن كان ذات يوم عندما نسى مكتبه فى البيت مفتوحا ، وجدت كتبا كثيرة بالانجليزية عن مارك أنتونى ، وكتابا عنوانه : ومضات من حياتهم وفيه كل القصص التى رواها يوسف عن نفسه بينما أبطالها الحقيقيون هم غاندى ونابليون ودرززائيلى وتشرتشل وغيرهم العظماء .

— تعنين أنه كذاب ؟ كل الرجال كذابون ، حتى ملوك الفراعنة . العظام الذين ليسوا فى حاجة إلى الكذب .. كان كل منهم ينتحل انتصارات غيره بوصفه بطلها وصانعها .

قالت أمينة : لا يهمنى أنه أصبح كذابا .. ولكن ..

ولم تستطع أمينة أن تكمل .. انطلقت فى بكاء مؤلم آلمنى كثيرا .

بصعوبة عرفت منها ـ بين شهقات بكائها ـ أن يوسف توجه إلى وكالة البلح وابتاع خوذة قديمة لرجل مطافىء ، وضعها على رأسه وأصبح يصيح فى البيت .

— أنا مارك أنتونى .. أنا مارك أنتونى !

* * *

مع كل حبى وأكاذيبى !

نحن فى أبريل :

وقد اعتاد الناس أن يكذبوا فى شهر ابريل كما اعتادوا أن يكذبوا فى كل شهر !

ولا أحد يعرف على وجه التحديد كيف نشأت كذبة أبريل . هناك رواية تقول أن كذبة ابريل نشأت من ٤٢٠ سنة عندما غير شارل التاسع ملك فرنسا بداية السنة الميلادية من أول أبريل إلى أول يناير . فلما اعتاد الفرنسيون أول يناير عيدا يتبادلون فيه هدايا رأس السنة ، ظلوا يحتفظون بعيد أول أبريل ، فيتبادلون الهدايا الرمزية الكاذبة والأكاذيب المرحة حيث يقول الزوج المزمن لزوجته أحبك ياروحى ، فتبادله الكذبة : أحبك يا حياتى !

وسواء كان أصل كذبة ابريل حكاية شارل التاسع أو غيرها ، فقد نجح الإنسان عموما فى خلق احتفال عام بالكذب فى أول ابريل ، أو على الأصح نجح فى إيجاد « اليوم العالمى للكذب » !

فلعل من الملحوظات المفيدة التى تخرج بها من زيارتك لحديقة الحيوانات أنك لن تسمع أو ترى بين الحيوانات جميعا حيوانا واحدا يكذب ، فما دام الإنسان هو الحيوان الوحيد الناطق ، فهو أيضا الحيوان الوحيد الكاذب .

ان الإنسان يتوق إلى قول الأكاذيب كما يشتهى سماعها أيضا ، بل إنه يسعى إلى شراء الأكاذيب بالفلوس ، فإن أكثر الناس شهرة هم الكتاب الذين يؤلفون قصصا لم تحدث ، والممثلون الذين يمثلون شخصيات وهمية ، والمخرجون الذين يوفرون الحبكة والاتقان لكل كذبة .

* * *

ويبدو أن الكذب ضرورة فى حياة الإنسان ، فلو لجأ الإنسان إلى الصدق المطلق لأصبحت حياته شديدة التعقيد ، وامتلأت أقسام الشرطة والمحاكم بالمتنازعين ، وحدثت أزمة شديدة فى سراير عنابر الكسور بالمستشفيات .

لنأخذ مثلا بسيطا .. هذا رجل يقول لصديق حميم له : لا تتصور كم كانت زوجتى سعيدة عندما علمت أن زوجتك وأولادك سوف يكونون على مائدتنا فى الغداء يوم الجمعة .

ترى ماذا يحدث لو قال الرجل الحقيقة لصديقه الحميم وروى ما حدث بالفعل قائلا :

عندما اقترحت على زوجتى أن تتناول الغداء معنا يوم الجمعة القادم لطمت وبكت ، لكننى صممت فاستسلمت أمام إصرارى على دعوتكم ، إذ أنك تعلم أنها لاتطيق زوجتك ولا باروكات شعرها ولا فساتينها ذات الترتر فى عز النهار ، كما أن زوجتى تعتبر أولادك فى منتهى قلة الأدب ، خصوصا الولد أشرف الذى سكب شوربة الطماطم على مفرش المائدة ، ولطخ الأوبيسون بالكريم شانتى ، هذا بالإضافة يا صاحبى إلى أنها ترى فيك انسانا غبيا ثقيل الظل وتقول ـ كلما رأتك ـ أنها تزداد اقتناعا بأن الإنسان أصله حمار .

* * *

إن كل الكبار يكذبون .

ولأن الصغار لا يعرفون الكذب ، فإننا نتخذ من كلماتهم الصادقة نوادر نرويها فى المجالس .. هذا طفل مثلا يقول لمحصل القطار : عمرى ثمانى سنوات ولكنهم نصحونى بأن أقول أن عمرى خمس سنوات لأركب بنصف أجرة ، فيقول المحصل : برافو .. أنت ترى إذن أن الكذب لا جدوى منه ، فيرد الصغير : لا تكن ساذجا يا سيدى .. فالكذب يوفر نصف ثمن التذكرة .

وهذه طفلة تواجه أسئلة التحقيق من جدتها فتقول : لقد كنت أنا وأخى فى غرفة المائدة بالطابق الأسفل نلعب لعبة ماما وبابا ، فجلست أنا على رأس المائدة وجلس أخى فى الناحية الأخرى ،

وما لبث أن قال : هذا طعام تعافه حتى الحيوانات ، فقذفته بالطبق الذى سبب له هذا الجرح فى حاجبه .. وعلى أى حال أنا متأسفة لإصابته فى حاجبه .. كنت أريد أن أصيبه فى رقبته كما فعلت ماما مع بابا .

وهذا أب يحاول أن يبسط لابنه معلومة علمية .. هل تعرف يا صغيرى لماذا يتصاعد البخار هكذا من اناء الشاى ؟ فيرد الصغير : طبعا أعرف .. هذا البخار يتصاعد حتى تتمكن ماما من فتح خطاباتك قبل تسليمها لك .

* * *

ورغم أن الإنسان شديد التعلق بالكذب إلا أنه يرفض أن يوصف بأنه كذاب ، ولذلك فهو يطلق على أكاذيبه أسماء مختلفة ، فأحيانا يسمى الكذب مجاملة ، وأحيانا يسميه لباقة ،وأحيانا يسميه ترضية أو مسألة ذوق .

والكذب الأبيض ضرورة فى الحياة الزوجية (والكذب الملون أحيانا) ولأن المرأة تتمتع بذهن يستوعب الكثير من التفاصيل الدقيقة التى يسقطها ذهن الرجل ، فإن استجواب المرأة للرجل بعد ان يلقى بأكذوبته عليها ، يمثل معاناة حقيقية دونها معاناة البائس الذى كان يتعرض لاستجواب تعذيبى من الجستابو .

ان السؤال الخالد الذى يتعرض له الزوج ويعد له مائة رد لينتقى منها الأحسن والأفضل ، هو عندما تواجهه الزوجة قائلة : أين كنت حتى هذه الساعة ؟

ان نفس هذا السؤال من المحبوبة ـ أيام الغرام ـ كان يطرب حبيبها طربا شديدا لأنه مؤشر غيرة عليه ، أما بعد زواجه منها فقد ثبت أن هذا السؤال يتسبب فى هبوط أحشاء الزوج مع الإسهال

واضطراب الدورة الدموية بسرعة النبض وارتفاع الضغط ، ثم جفاف الحلق واصفرار الوجه مع دوار ضعيف .

ولهذا فإن الكذب المتقن من جانب الزوج يحتاج إلى تماسك عصبى غير عادي ومهارة ذهنية عالية ، ومن هنا انقسم الأزواج فى ذلك الى قسمين : الأزواج الأذكياء والأغلبية !

والإرهاب الذى يتعرض له الزوج تلخصه لنا قصة تلك الزوجة التى قالت لصديقتها : لقد ظللت استجوبه أربع ساعات لأعرف أين كان حتى الخامسة صباحا . فقالت لها الصديقة : وبماذا خرجت بعد هذه الساعات الأربع ؟ قالت الزوجة : خرجت بمعطف منه .

من جانب آخر نرى الزوجات معذورات حقا إذا ثارت أعصابهن أمام أكاذيب ساذجة سقيمة الخيال . فهذا زوج يبرر عودته فى الثالثة صباحا بأن عجلات السيارة جميعها « نامت » فى وقت واحد .

— الإطارات كلها ؟

— كلها

— حتى الاستبن ؟

— حتى الاستبن .

ولأن القانون لا يحمى المغفلين فمن العسير أن يجدمثل هذا الزوج من يحميه من أظافرها وأسنانها .. أو لسانها وهذا أضعف الإيمان .

ولأن ذهن المرأة ـ كما أسلفنا ـ يهتم بالتفاصيل ، فهذا زوج لم يحسب حساب ذلك ، إذ ادعى أنه ذهب ليقص شعره وكان المحل ـ ككل مرة ـ مزدحما ، فانتظر وانتظر ، وأخيرا انصرف من المحل دون أن يقص شعره . هنا تنظر اليه الزوجة فى هدوء قائلة : ولكن اليوم الاثنين .. وكل محلات الحلاقة مغلقة !!

وقد تضيق الزوجة بالأكاذيب والخداع وتطلب الطلاق ، فنراه بعد الطلاق يكتب إليها : إن الكلمات يا حبيبتى لا يمكن أن تعبر عن ندمى لما فعلته معك . عودى إلى ياحبيبتى . فإن غيابك يترك فراغا رهيبا لا تستطيع ألف امرأة أن تملأه . أتوسل إليك سامحينى واغفرى لى أكاذيبى ولنبدأ صفحة جديدة فإنى فى أشد الحاجة إليك ـ حبيبك فلان .

ملحوظة : بالمناسبة يا حبيبتى أهنئك بفوزك بجائزة البنك الأولى ٥٠ ألف جنيه .

إن صديقى « نون » يلخص فلسفة الكذب فى الحياة الزوجية عندما قال له والد زوجته : هل تعرف يا ولدى ماذا سيحدث لك إذا كذبت عليها ؟

— قال نون : أعرف يا عمى .. سأذهب إلى النار ، قال أبوها : وهل تعرف ماذا يحدث إذا قلت لها الصدق ؟

— قال نون : أعرف ياعمى .. سأذهب إلى محكمة الأحوال الشخصية لأنها ستطلب الطلاق .

* * *

وإذا كان الكذب الأبيض ضرورة فى الزواج ، فإن الحب بكل روعته وحلاوته ليس إلا مجموعة من الأكاذيب المزركشة .

يقول جبران خليل جبران : وسرور الحب وهم لايطول .. وجمال الحب ظل لايقيم .. وعهود الحب أحلام تزول .. عندما يستيقظ العقل السليم .

وغياب العقل السليم عن العاشق لا يجعل منه مجنونا فحسب يرتكب جنونيات الحب الجميلة ، بل يحيله أيضا إلى أكبر كذاب فى الدنيا !

غير أن الكذب فى الحب لا إرادى ، فالذى يحدث بالضبط أن الحب يقوم بعملية غسيل مخ لكل من الطرفين . . مثلا يحدث أن تتعرف فتاة بشاب فى مجتمع ما ، ويتضح لها منذ الوهلة الأولى أن أنفه فى حجم القلقاسة ، ومع الأيام قد تتصاعد درجات الإعجاب بالشاب إلى مرحلة الحب ، وهنا ترى الفتاة أنف ذلك الشاب القلقاسى يصغر شيئا فشيئا ليصبح فى حجم التفاحة ، ثم فى حجم البرقوقة ، ثم تتباهى بين صديقاتها بأن أنف فتاها نبقة من الشام !

* * *

لقد كان لنا فى الجامعة صديق اسمه عبد العزيز ، كان شاعرا . رقيقا رفيع الذوق محبا للجمال ، وقال فى سلمى زميلتنا أروع القصائد فى العيون الحوراء ، والجيد الأغيد ، والأنف الرومانى والقوام السمهرى والشعر الحرير .

وتزوج عبد العزيز من سلمى .

ولأن عبد العزيز رفيع الذوق محب للجمال ، فقد أصابته دهشة عظيمة عندما رأى صديقا له عن بعد يغازل امرأة بعيدة كل البعد عن الجمال .

وناداه عبد العزيز وسأله :

— هل تحب المرأة الصلعاء ؟

قال صديقه .

— كلا .

— هل تحب المرأة ذات السيقان المعوجة ؟

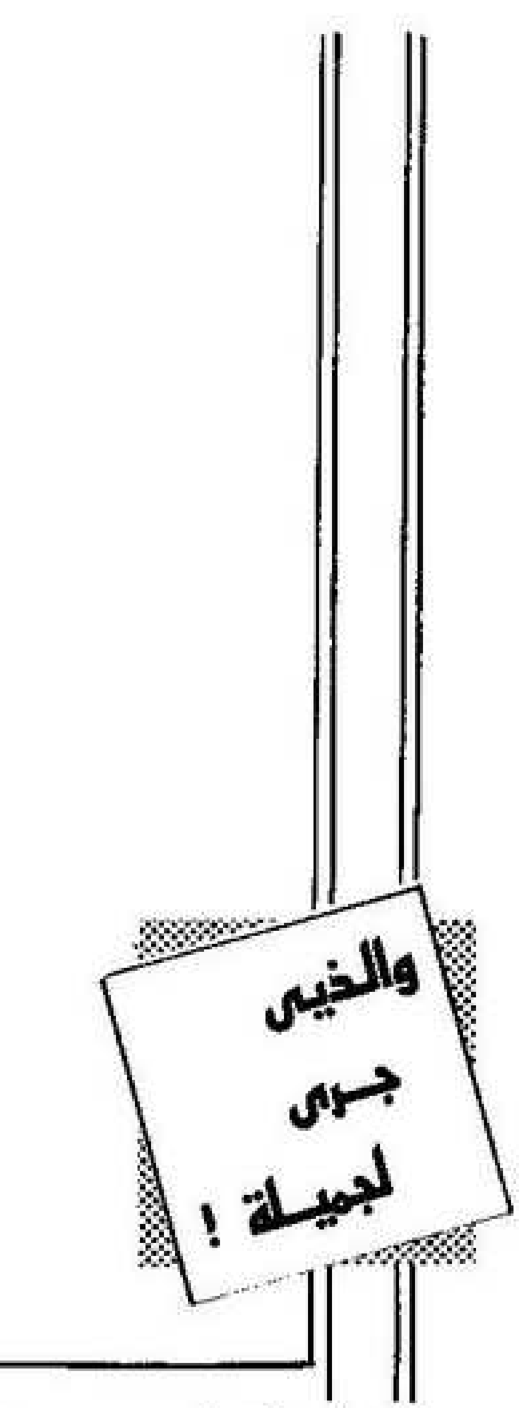
— كلا .

هل تحب المرأة ذات الصوت الأراجوزى ؟

— كلا .

هنا صاح عبد العزيز .

— إذن قل لى بحق السماء . . لماذا تغازل سلمى زوجتى ؟؟



تعودت أن أعتذر باستمرار عن عدم حضور الندوات ، فإن الاعتذار عن عدم الحديث فى ندوة أفضل بكثير من الاعتذار عن الحديث فيها .

ولقد حضرت فى حياتى ندوتين ، الأولى كانت فى ناد معروف ، وبعد جلوسى فى قاعة الندوة أدركت أن حديثى لن يكون ترفيهيا . . ولا ظريفا ، بل غليظا ، إذ تقدم رجل إلى الميكروفون وأشار نحوى قائلا إن فلان الفلانى سوف يتحدث إليكم ، ثم يعقب ذلك برنامج ترفيهى ظريف !

وكعادة المتحدثين استهللت الندوة بالنكتة التى أعددتها . وأسعدنى أنها كانت نكتة رفيعة المستوى لدرجة أن أحدا لم يضحك ، ثم بدأت حديثى منفذا تعاليم الذين تمرسوا من قبل فى إلقاء الخطب والأحاديث ، إذ قالوا لاتخش العيون التى تحملق فيك وتجنب أن تلتقى عيناك بأى من تلك العيون ، وأرفع رأسك وانظر إلى لا شىء ، ثم احصر تفكيرك فيما تقوله دون أن تنسى الابتسامة .

ورفعت رأسى ، وتعقلت عيناى بفضاء القاعة ، أدير رأسى يمنة ويسرة . . ومن اتجاه بصرى إلى لا شىء ، ومن حركة رأسى ، سرت همهمة فى القاعة ـ كما علمت فيما بعد ـ بأننى كفيف ، وهذا فسر لى بسهولة ما كنت أشاهده من جمهور الحاضرين ، إذ كانوا يتسللون على أطراف أصابعهم خارجين .

كانت هذه الندوة كافية لكى أعتزل الذهاب إلى أية ندوة ، لكننى وجدت نفسى ـ تحت ضغوط أدبية ـ متورطا فى ندوة أخرى عن الحب والزواج .

تحدثت عن الحب ، وقلت إنه يتنكر فى أثواب كثيرة ، أحيانا يتنكر فى ثوب الانتقام أو ثوب الكراهية أو ثوب الزواج ، وما كدت أقول أن الزواج هو أفضل أنواع الحب نضجا وعمقا ، حتى وقف رجل وقور وصفق ـ بمفرده ـ كثيراً !

كان الرجل فى منتصف الستينات ، رشيق القوام ، فضى الشعر ، استأذن أن يتكلم بعد أن قدم نفسه : يوسف الفلانى .

قال الرجل : إن أخطر ما يهدد الزواج فى رأيى هو الغرام الرومانسى المفتعل بين العريس وعروسه .

فى البداية يجب منذ اللحظة الأولى ـ أن يكشف كل منهما للآخر عن أعماق نفسه . إن الإنسان هنا أمام شريك أبدى للحياة ، فإلى متى يقوم بدور تمثيلى له ـ بالقطع ـ نهاية ذات يوم ؟ .

يجب أن نعترف أن شهر العسل وما بعده مرحلة أولى وهمية .. تعقبها المرحلة الثانية وهى الحقيقة بكل تفاصيلها الحلوة والمريرة . فى المرحلة الأولى يقول كل منهما للآخر : أنت الدنيا .. أنت العالم كله ، فى المرحلة الثانية يدرك كل منهما أنه كان ضعيفا فى الجغرافيا . فى المرحلة الأولى تخلع الزوجة نعال زوجها عند عودته مجهدا إلى البيت ، وفى المرحلة الثانية تخلع الزوجة نعالها عند عودته متأخرا إلى البيت .

كان للرجل الوقور حضور وجاذبية وأبوة أيضا ، فأشاع البهجة من حوله والرضا ، وفجأة قال للحاضرين : كلمتى الآن إلى السادة الأزواج .. كل زوج يحب زوجته حبا غراميا يتفضل بالوقوف .

وقف رجل بين الجالسين يربت على كتف زوجته ضاحكا وهو يقول : أنا ! ثم تبعه أزواج آخرون فى الوقوف . ونظر إليهم الاستاذ يوسف الفلانى وقال لهم فى انحناءه خفيفة : انى أقدر حقا ظروفكم العسيرة وزوجاتكم الى جواركم .

***

دعوت « العم » يوسف ليشرح وجهة نظره بالتفصيل . قال الرجل : عندما أحببت زوجتى جميلة كانت تتلقى منى ـ قبل أن ترانى ـ رسائل حب بلا توقيع ، وكانت تسهر الليل ـ كما قالت لى ـ تستعيد سطورى ثم تستسلم للأحلام والتنهدات ! .. اختصر وأقول : أصبحنا خطيبين .

قلت لجميلة : أعرف صديقا أفهموه أن حياة الزوجين تحت سقف واحد تذهب بالغرام وأشواقه ، فبنى فيلا من دور واحد وجعلها بسقفين فوق بعض حتى يتجنب الحياة مع عروسه تحت سقف واحد .

ضحكت خطيبتى وقالت : كم هو مغفل !
أسعدنى هذا التعليق من جانبها . تراءى لى أنها متفهمة لطبيعة الحياة الزوجية .

فى اليوم الخامس من شهر العسل قلت لجميلة زوجتى بهدوء : إن الرسائل الغرامية التى كتبتها لك ، كنت أنقلها من أقوال الكتاب والشعراء فى الكتب عندى . وتجاهلت شهقتها وخيبة الأمل التى تبدت على وجهها ومضيت أقول : أعرف أن هذا يؤلمك كثيرا ولكن ما حيلتى ؟ لقد وقعت فى هواك فكيف كان يمكننى أن أعبر عن حبى لك مثل شاعر أو كاتب وأنا مجرد كيميائى ؟

لا تقولى إننى غشاش ومخادع .. هل إذا كان الله قد وهبنى صوتا جميلا وغنيت لك أغنيتنا المفضلة « إنى أنتظرك » فهل أكون غشاشا لأنى أردد كلمات ليست لىّ ؟ وهل إذا أهديتك زهرة فهل تقولين لى لا تهدنى زهرة مقطوفة .. أريد زهرة زرعتها بيدك ؟ ... بل إذا قلت لك الآن أحبك .. فهل تتصورين أن هذه الكلمة من تأليفى ؟ لقد قالها أبى لأمى ، وقالها جدك لجدتك ،

وهمس بها رمسيس لنفرتارى ، وقالها ـ قبل هؤلاء جميعا ـ آدم لحواء .

لقد بكت جميلة وتمنت لو كنت قد تركتها مخدوعة ، قلت لها لا أحب أن أبدأ حياتنا بالخداع ، فأبدت أسفها لأننى لم اكتب ما أحس به أنا من مشاعر .

يا جميلتى .. أن الحب احساس انسانى واحد ولكن القدرة على التعبير عنه تختلف من انسان الى آخر . ان هؤلاء الشعراء الذين نقلت لك تعبيراتهم كانوا محترفى حب . لايحبون للحب ، ولكنهم يحبون ليقولوا ويكتبوا . حرفة . أنت يا جميلة عندما تتأملين عاشقا مثل قيس سوف تجدينه شابا مختل العقل ، يختلق الظروف ليكون سلبيا مع محبوبته حتى يتحول حرمانه منها إلى شعر يقال ويرويه الرواة .

الأرجح ، بل المؤكد أن هذا القيس كان سافلا ، ففى مجتمع كان يئد البنت عند مولدها دفعا للعار ، جعل قيس سيرة ليلى على كل لسان .. بل ان شعراء الحب العذرى لم تصل الينا قصص حبهم إلا لأن كلا منهم فضح حبيبته بقصائده ، فنحن لم نعرف بثينة إلا من شعر جميل بن عبد الله ، ولم نعرف عزة إلا من شعر كثير الخزامى ، فإذا كان رواد الحب العذرى الطاهر على هذه الشاكلة ... فكيف تتصورين سفالة الآخرين ؟

* * *

لقد بدا على زوجتى عدم الاقتناع بما أقول . حاولت أن أشرح لها أننا بقدر ما نصعد الأعالى تكون مسافة الهبوط والانحدار . حكيت لها عما سمعته عن الممثل السينمائى الوسيم الذى تزوجت به معجبة تدلهت فى حب وأولع هو بها عشقا ، وعاش الاثنان قصة

حب سينمائية اكتملت لها كل عناصر الرومانسية التى تحلق بالمحبين فى السماء ، ثم حان أوان الهبوط إلى الأرض ، وتحولت المعجبة إلى زوجة عادية ـ كما أريدك أن تبدئى يا جميلة ـ وانطفأ الغرام المتقد ، وذات يوم خرج شقيق زوجة الممثل مع كلبها المدلل للنزهة ، وصدمت الكلب سيارة ، واجتمعت الأسرة تتداول كيف ينقلون إليها هذا الخبر الرهيب ، فاستقر الرأى على أن يقولوا لها الخبر مخففا فى البداية ، وفعلا ، قالوا لها زوجك صدمته سيارة ، فانزعجت انزعاجا شديدا ، ثم أغمى عليها عندما عرفت إنه الكلب .

لماذا لا نبدأ يا جميلة من حيث تنتهى قصص الحب المقتد وتخبو منه النار ؟ .. ان النهر الواحد متصل ببعضه البعض من المنبع إلى المصب ، والنهر يبدأ من منبعه عنيفا قويا ، يندفع فى شلالات هادرة ، ويجرف فى طريقه كل شىء ، ولكنه عند المنبع يكون ضحلا دائما بلا أعماق . هذا هو الغرام . ثم يعمق النهر ويستقر ويتزن عندما يقترب من المصب . هذا هو الزواج . انهما نهر وحد متصل : الحب والزواج . فالزواج هو الحب فى أروع مراحله نضجا وعمقا واتزانا .

* * *

خرج المحاضرون مبهورين حقا بالعم يوسف الذى رد للزواج اعتباره كمرحلة حب باقية ودائمة على الزمان .

وعندما أصبحنا وحدنا ـ بعد انصراف الناس ـ خرجت أتمشى مع العم يوسف ، وسألته :

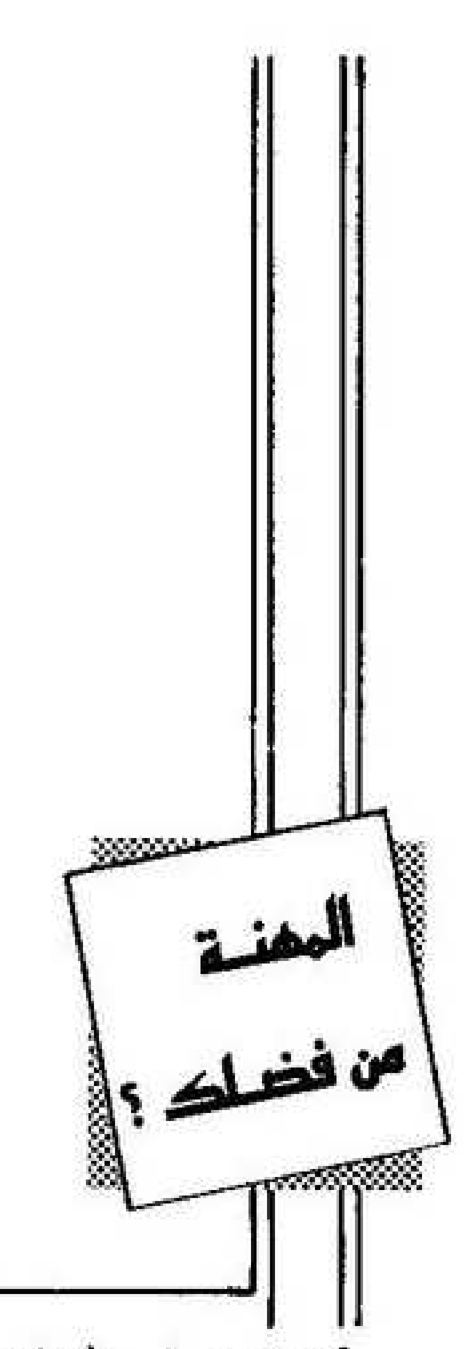
لم أعرف إن كانت السيدة جميلة قد اقتنعت بنظريتك أم لا وأنتما فى شهر العسل ؟

قال : لقد فرضت نظريتى بالقوة ، ففى اليوم السابع من شهر العسل ضربتها ضربا شديدا حتى أغمى عليها لكى تقتنع بأننى لن أكون ذلك الفتى الرومانسى . .

قلت له : وكيف الحال الآن ؟

قال : الحمدلله . . لقد مضى على زواجى من جميلة حتى الآن أربعة وعشرون عاما . . ومنذ ثلاثة وعشرين عاما وأنا أرمل .

***



قد يتضح فى ظروف خاصة أن للزوج فائدة ، ففى بعض الأحيان تسيطر مهنة الزوج على تصرفاته وأحاديثه ، ويتحول عندئذ إلى أداة تسلية وتثقيف للزوجة ، ومن هؤلاء الزوجات السعيدات جارتنا ناهد .

ان زوجها لا يكلمها إلا فى تخصصه العلمى « علم الإنسان القديم » فلا يحدثها إلا عن إنسان جاوة البدائى ، وإنسان بكين ذى القامة المعتدلة ، وجمجمة إنسان نياندرتال ، وهو فى خلال حديثه الشائق يمسك بجمجمتها ، أو يدعها تمسك بجمجمته لتقف بنفسها على تركيب العظام ، فلما تمرست ناهد فى هذا العلم لطول ما حدثها فيه ، اكتشفت أن جمجمته منحدرة الجبهة ، ولم تجاهره عندئذ بذلك ، وانما علم الجيران بهذه الحقيقة العلمية فى الاشتباك الدورى بينهما ، فقالت ناهد بأعلى صوتها إن جمجمته ذات الجبهة المنحدرة والفك البارز هى بالضبط جمجمة الإنسان الشمبانزى البدائى الذى عثروا عليه فى الفيوم ، ثم راحت تحدد له الصفات المشتركة بين وجهه ووجه القردة العليا « الأورانجوتان » .

* * *

وكان الجار الثانى هو الدكتور كرم ، ولأنه شديد التعلق بتخصصه العلمى ، فقد كان يشيع من حوله لونا بهيجا ومسليا من الحياة ، ليس فقط للسيدة نعمت زوجته ، بل لكل الجيران أيضا ، وقد كنت أكثرهم استمتاعا بجواره ، إذ كانت نافذة غرفة مكتبى تطل على غرفة المعيشة عنده ، فاستغنيت تماما فى أوقات الفراغ عن برامج التليفزيون اكتفاء بالعروض المثيرة التى يقدمها الدكتور كرم ، ذلك الاستاذ الحائز على ثلاث دكتوراه فى الدراسات الصوتية للغة ، ويبرهن بحق على أستاذية عظيمة فى علمه .

ذات مرة شاهدته جالسا فى غرفة المعيشة يقلب صفحات جريدة ، وما لبث أن نادى خادمة : يا عنتر ، ولما أتى صوت عنتر من بعيد يقول « نعم يافندم » . . اعتدل الدكتور فى جلسته متحفزا وقد ألقى الجريدة جانبا ، وجاء عنتر بعد برهة ليسأله الدكتور : هل كنت ترد على ندائى وفمك محشو بطاطة مشوية ؟؟ . إن مخارج

الألفاظ وأنت تقول لى نعم يافندم تكشف بوضوح أنك كنت تأكل البطاطة .

وأنكر عنتر . وأمام العصبية المتصاعدة للدكتور كرم ، اعترف الخادم بأنه كان يأكل قطعة مارون جلاسيه وهو يرد النداء. ولم يكترث الدكتور لهذا الاعتراف الصريح بالسرقة ، وصمم على أن عنتر كان يأكل بطاطة مشوية ، ثم كلف الخادم باحضار البطاطة من المطبخ مع طبق المارون جلاسيه ، وراح يأمره بأن يحشو فمه مرة بقطعة مارون ومرة بالبطاطة ويقول « نعم يافندم » ، وظل الخادم يأكل المارون والبطاطة حتى أتى عليهما جميعا .

وعندما عادت نعمت من العمل وجدت أن عنتر قد ترك البيت إلى غير عودة ، فأشاعت هى الأخرى فى أرجاء المنزل لونا من تجديد الحياة لكسر الروتين ورتابة المألوف ، وإذ صرخت ولطمت وارتفعت عويلها ، فقد أصبح عليها أن تقوم بأعمال البيت انتظارا للخادم السابع خلال شهرين . فقبل عنتر كان هناك سعدان وأم الخير وحسنين ومصيلحى وزاهدة والحنفى . ولقد تركوا الخدمة جميعا بسبب الخلافات العلمية مع الدكتور . أم الخير مثلا أخذ عليها الدكتور أنها ما من مرة ترد على ندائه إلا وهى تقزقز لبا أبيض بالذات وليس لبا أسمر إذا ما ادعت ذلك عن الخادم سعدان ، فقد قضى أياما عصيبة والدكتور يدربه على الطريقة المناسبة للكلام لأنه ـ فى رأى الدكتور ـ يتكلم كالرعاع .

عندما أدار دكتور كرم قرص التليفون رد عليه صوت نسائى بأن النمرة غلط ، وما لبث أن استولى عليه الاهتمام المهنى فاستأذنها فى سؤال ، فلما أذنت له سألها : ما شكل سنتك الأمامية اليمنى ؟ . . لابد أن السنتين الأماميتين عندك بديعتا التكوين ، فأنت تنطقين حرف السين بجرس له عذوبة خاصة .

— نعم . .

فلما أعاد عليها ما قال ، بدا له أن المرأة المجهولة قد طربت لهذا الثناء ، ولاقى فى نفسه ما شجعه على أن يقول لها : كم هو جميل حرف السين عندك . . قولى سلامات .

فأطلقت المرأة ضحكة أنثوية ثم قالت فى دلال : سلامات ، وسعد الدكتور كرم بأن السيدة متفهمة ومستنيرة تقدر الأبحاث العلمية ، وعندما بدأ يجرب حرفا آخر فى فمها هو حرف الزين ، قال لها : قولى لى : زورونى كل سنة مرة . واستجابت المرأة ، وما لبث أن صادف الدكتور هوى فى نفسها ، فتضاعفت سعادته وهى تسأله : تحب تسمع « السين » تانى ؟

— أرجوك !

— كلمنى عن نفسك ،

وتضاحكا ، ومضى الدكتور يقدم نفسه إليها ، فأدلى باسمه ، ومهنته ، وعنوانه ورقم تليفونه ، ولم يكن الدكتور كرم يدرى أن الذى كان يمسك بالسماعة فى تلك اللحظة ضابط شرطة الآداب الذى داهم مسكن المرأة .

* * *

فى الشقة المجاورة لمسكن الدكتور كرم ـ حيث يقطن الاستاذ بكير ـ كان العرض صباحيا فقط . فالاستاذ بكير مهنته العلاقات العامة ، وقد حصل فى هذا التخصص على مؤهلات كثيرة من جامعات بريطانيا وأمريكا ، وهو شخصية جذابة وناجحة ، يحظى بإعجاب سكان البناية جميعا ما عدا زوجته طبعا ، فالزوجة عادة لاتنبهر بما ينبهر به الآخرون من زوجها ، ذلك أن كل زوج كالقمر ، ليس فى بهائه طبعا ، ولكن فى أن له وجها وضيئا يواجه الناس ، ووجها دائم الظلام يواجه الزوجة المسكينة ، فالعلاقات

العامة ـ مثلا ـ تحتم على الاستاذ بكير أن يكون الأظرف والأرق والألطف ، وأن يبتسم وأن يجامل وأن يحل المشاكل فى دبلوماسية وأن يتحمل فى صبر وأناة سخافات الآخرين ، فإذا ما عاد إلى البيت أفرغ شحنته العصبية المختزنة فى زوجته الطيبة هدى التى اعتادت أن تتحمله فى صمت وصبر .

وأشهد أن الاستاذ بكير لم يكن ـ كمعظم رجال العلاقات العامة ـ يرتدى قناعا زائفا من الحب والمودة للناس ، بل كان يحب الناس حبا حقيقيا .

ولقد رأيت بعينى ما الذى تكلفه له محبة الناس !

ففى كل صباح كنت أسمع زفرة متألمة للاستاذ بكير يعقبها صوت شديد الحزن : لا حول ولا قوة إلا بالله . وتسأله هدى من بعيد : من ؟ ويرد بكير بصوت تخنقه الدموع : ماهر عباس .. البقية فى حياتك .

ولم تكن هدى تستفسر عمن يكون ماهر عباس . فزوجها يصادق الدنيا كلها . كل ما كان يعنيها أن تهدىء من روعه وأن تخفف عنه ..

.. فى الصباح التالى يترامى الى سمعى صوت الاستاذ بكير مفجوعا : غير معقول ! .. غير معقول !

وتسأله هدى : من ؟

ويرد بكير باكى النبرات : مراد الكرواتى .. لا إله إلا الله .. يا حبيبى يامراد .. يارب صبرك .. يارب صبرنى ..

كنت أراجع صفحات الوفيات فى الجريدة ، فيزداد إكبارى للاستاذ بكير لأن المتوفى رجل بالمعاش ، لا سلطان له أو جاه ، أو رجل عادى متواضع الأقارب ، فلا شبهة إذن فى نفاق أو مداهنة

من جانب الاستاذ بكير ، وما من صباح يمر دون أن أسمع صيحة الفجيعة يطلقها هذا الرجل النادر فى زماننا الصعب . والشىء المذهل أنه كان لا يعود من كل مأتم إلا فى الواحدة صباحا بعد أن ينفض الناس من سرادق العزاء ، وينوب عن أهل الفقيد فى محاسبة محل الفراشة والقراء وغير ذلك ..

ليس هذا فحسب ... فإنى أذكر ذلك الصباح من شهر مايو عندما أطلق الاستاذ بكير صرخته اليومية المفجوعة ثم قال : ميرزا مات ؟؟ ياخبر اسود ؟؟ميرزا ؟؟ .. معقول ؟؟ استغفر الله العظيم .

وناشدته زوجته أن يرحم صحته من هذه الانفعالات بينما أمسك هو بسماعة التليفون وقد بدأ يعد ترتيبات سفره إلى لندن .

.. فتحت الصحيفة على صفحات الوفيات فوجدت أن المرحوم ميرزا فريدون قد توفى فى لندن وسوف يدفن جثمانه هناك .

أيذهب إليه بكير فى لندن ؟ أى رجل خرافى هذا الاستاذ بكير ؟ انه طراز عظيم ونادر من البشر تقلص وانقرض ..

سلمت عليه بحب وتقدير وهو يستعد للتحرك نحو المطار .

وغاب فى لندن اسبوعا يودع ميرزا فريدون صديق العمر .

* * *

فى شهر يوليه اكتشفت هدى أن بكير لم يكن يعرف واحدا من هؤلاء الموتى ، بل كان يزعم أنه ذاهب إلى المأتم الليلى ويقضى نصفا من النهار ونصفا من الليل عند الزوجة الجديدة !



هناك أقلية من الرجال يرون أن الزواج غير ممل ، وهناك الأغلبية !

غير أن هذه الأغلبية تتجاهل تماما الرد على سؤال وجيه يقول : من الذى يزرع الملل فى بيت الزوجية ؟

طبعا لا يمكن اتهام المرأة بأنها السبب ، فالمرأة محبة دائما للجديد وللتجديد ، ديكور البيت يتغير من وقت لآخر ، والفستان دائما جديد ، وتسريحة الشعر لا تستقر على شكل واحد ، والشعر نفسه لا يستقر على لون ، والماكياج إبهار مستمر : فالجفن مرة أزرق ومرة تركواز ، والشفاه تستعرض الأحمر بكل درجاته من الروز الخفيف إلى الأحمر الناري ، والحاجب مرة تخين ومرة فتلة ، ولا مانع ـ دفعا للملل ـ من أن تكون الموضة هي الظهور بحاجب واحد .

بل ان المرأة بعكس الرجل ـ تغير رأيها مائة مرة وتبدل كلمتها ألف مرة ، وهذا طبيعي لأن الإنسان يتطور في كل لحظة ويتطور مع تفكيره إلى الأحسن والأفضل ، بينما ثبات الرجل على الكلمة والرأى دليل على عدم التطور ومنتهى الجمود .

وهذا الجمود يمتد عادة إلى كلام الزوج ، وتصرفات الزوج ، وحركات الزوج ، ومن المؤكد أن صديقنا « حسان » يمثل نموذجا مكتملا لما ينتهي إليه أمر معظم الأزواج ، ان تصرفاته اليومية يمكن معرفتها مقدما منذ أن يدخل من باب البيت . فهو ـ مثلا ـ إذا جلس الى السفرة يأكل ، يمضغ اللقمة تسع مرات بالضبط ثم يبتلعها . وإذا سعل « سعلة » خفيفة فهذا معناه أنه سوف يمد يده إلى كوب الماء ليشرب وإذا ضرب حافة الطبق بالشوكة ضربة خفيفة فهذا تمهيدا لأن يقول : أين الفلفل الأسود ؟ وإذا تراجع في مقعده فهذا إيذان بأنه سيطلب طبقا نظيفا . . فإذا أشارت الساعة إلى السادسة وخمس دقائق وجدناه يعبر الممر الى غرفة المعيشة وهو ينادى : القهوة ، وهو ليس في حاجة إلى هذا النداء ، ففي تلك اللحظة بالضبط يكون رضوان السفرجي متجها بالقهوة إلى غرفة المعيشة .

إن « حسان » إنسان آلى . مبرمج . لا جديد أبدا فى تصرفاته اليومية . عندما يفتح الباب عائدا من العمل لابد أن يقف للحظة فى حلق الباب ، ثم يدخل ، ثم يستدير بجسمه كله ليغلق الباب ، ثم يستدير ليخطو خطوتين يتوقف بعدهما مناديا : رضوان . . ورضوان أمامه فورا : أفندم ؟ ويهز حسان رأسه دون أن يطلب إلى رضوان شيئا . انه مجرد نداء روتينى يتكرر كل يوم ويأتى معه الخادم ثم ينصرف مع هزة الرأس . وما ان يعبر حسان الصالة حتى يفتح درج فى نهايتها ، هذا الدرج حير زوجته كثيرا فى البداية . لقد كانت تضع فيه بعض أدوات الخياطة . وكان حسان يمر بهذا الدرج كلما عاد من خارج البيت ، فيفتحه ويحملق فيه لبرهة ، ثم يغلقه ويمضى إلى الداخل ، وأفرغت الزوجة هذا الدرج من محتوياته ، لكن حسان استمر يفتحه كلما عاد إلى البيت . لم يغير هذه العادة الحميدة يوما .

وذات مرة ضبط زوجته منحنية تتفحص الدرج الفارغ باهتمام شديد ، وظل يرقبها إلى أن صاح فيها : أريد أن أعرف ماذا تتأملين فى درج فارغ أيتها المجنونة ؟ . . وعندما وجهت إليه نفس السؤال نهرها ، وحذرها من أن تكرر هذا السؤال مرة أخرى ، فاشتد فضولها لتعرف سر هذا الدرج ، وأصبحت تفتش جيوب حسان وهو مستغرق فى النوم ، ليس بقصد الاختلاس كالعادة ، ولكن لأن إحساسا كان يراودها بأنها ستعثر على صورة للدرج من فرط اعتزازه به .

وعرضت الزوجة الدرج على الأهل والأصدقاء ، فلم يجدوا فيه ما يستحق النظر إليه ، وأكد لها شقيقها الاستاذ بمعهد الشواذ أن نظرة زوجها إلى الدرج لا تفسير لها إلا أن تكون مجرد عادة تمكنت

منه ويقوم بها بطريقة ميكانيكية ، فليس بين الإنسان والدرج أية علاقة تبعث على القلق ، ولا أية صلة من أى نوع ، خصوصا أن الإنسان ليس أصله درجا .

ولكن حسان بكل سوءاته ربما يكون أفضل بكثير من صديقنا عبد الله الذى ظل يحكى لزوجته منيرة نكتة واحدة لا تتغير لمدة ثلاثة شهور . لقد كان يوما أغبر فى حياة منيرة عندما قرأ عبد الله أن الزوج لابد أن يسرى عن زوجته خلال قيامها بأعمال البيت . ولقد بدأت المشكلة عندما عاد من عمله يوما . . فوجدها منهمكة فى إعداد الطعام والمائدة ، وهنا حكى لها نكتة عن أسرة أسرعت بطفلها إلى عيادة الطبيب فلم يجدوا الطبيب وسألتهم الممرضة : ماذا بالطفل ؟ قالوا : ابتلع مفتاح باب الشقة ، فقالت الممرضة بهدوء تطمئنهم : الأمر لا يدعو إلى القلق ، فيمكنكم عمل مفتاح جديد لباب الشقة .

ولم يضحك عبد الله كعادته عندما يروى نكتة ، بينما التفتت منيرة نحوه تقول فى اهتمام شديد : وكيف ابتلع الطفل المفتاح ، ورد عبد الله كان يلعب به طبعا . قالت منيرة بتأثر : مسكينة أمه . . هكذا هم الأولاد دائما . . عذاب ووجع قلب . .

يا إلهى !

وقدر عبد الله انصراف ذهن منيرة إلى هذا الاتجاه بحكم أمومتها .

بعد أيام كان عبد الله يجلس أمام التليفزيون بينما هى ترفع الأطباق من فوق المائدة بعد العشاء . فحكى لها نكتة الممرضة والطفل ومفتاح الباب ، فقطبت منيرة ما بين حاجبيها وهى تنظر إليه فى دهشة متسائلة : ما هى حكاية هؤلاء الأطفال الذين يبتلعون المفاتيح ، ثم أردفت تقول : الحمد لله . . الأولاد كبروا على ابتلاع المفاتيح .

وسكت عبد الله ، ولم يشأ أن يفسد عليها تلك الابتهالات التى راحت تتمتم بها ليحفظ الله الأولاد من كل سوء .

ومضت أيام أخرى قبل أن يحكى عبد الله نفس النكتة لمنيرة . . بينما هى مشغولة فى كى ملابس الأولاد ، فالتفتت نحوه مرتاعة وهى تشهق : يا خبر ! هذا هو الحادث الثالث من حوادث ابتلاع الأطفال لمفاتيح الشقق .

* * *

فى منزل صديقنا راضى ، شكا الينا عبد الله ضياع جهوده الطيبة للترفيه عن زوجته ، وكيف أن زوجته تستقبل النكتة بجدية شديدة ، قال له راضى : ولماذا لا تكون أنت ثقيل الظل ؟

ولم يكن عبد الله كذلك ، لكنه لم يجد منا غير اللوم ، ونصحه راضى بأن يتعلم أولا كيف يروى النكتة للمرأة ، فهو أمر يختلف عن روايتها للرجل ، وأكد له أن زوجته منيرة معذورة ، فلو أنه روى نفس هذه النكتة لأية امرأة أخرى لما تغيرت النتيجة .

بالفعل . جاءت رشيدة زوجة راضى وحكى لها عبد الله نكتة الطفل والممرض ومفتاح الشقة ، وعندما انتهى من النكتة قالت له رشيدة : والله انك ابن حلال يا عبد الله . . ثم التفتت إلى راضى تقول : هذا المفتاح الذى ابتلعه الولد ذكرنى بشقتنا فى الاسكندرية . . متى ستسافر لتغيير كالون الباب هناك قبل أن يسطو عليها اللصوص ؟

* * *

أحس عبد الله بالقهر وهو يرى منيرة تضحك بشدة أمام التليفزيون . فالتمثيلية المعروضة سخيفة وليس فيها ما يضحك على

الإطلاق ، ولكن أحد الممثلين فيها قلد مواء القطة ، انفجرت منيرة ضاحكة .

هل هذا معقول ؟ منيرة تضحك على هذا السخف الرخيص ولا تضحك على نكتته الظريفة ؟ . . لقد تأكد له أن أسلوبه فى رواية النكتة جيد جدا . فما من زميل فى العمل حكى له نكتة الطفل والممرضة ومفتاح الشقة إلا وضحك من الأعماق . . فما بال منيرة لا تضحك ؟

نهضت منيرة من أمام التليفزيون ثم صعدت سلما متحركا وبدأت تعيد ترتيب « البلاكار » فى الممر . ورأى عبد الله أنها فى حالة نفسية طيبة وعندها استعداد للضحك فوقف يحكى لها نكتة الطفل والممرضة ومفتاح الشقة ، وقبل أن ينتهى منها قالت منيرة فى استنكار : والله أنا لم أر طبيبا فى استهتار هذا الطبيب الذى لا يتواجد فى عيادته كلما ذهبوا إليه بطفل ابتلع مفتاحا .

* * *

قلت لعبد الله : أنت تخطىء إذا تصورت أن المرأة لا تتمتع بروح الفكاهة والمرح . . غير صحيح . الصحيح أنك تختار أسوأ الأوقات لرواية النكتة وهو الوقت الذى تنهمك فيه مع شغل البيت .

— ولكن مؤلف الكتاب ينصح بأن تقال لها النكتة أثناء انهماكها فى شغل البيت .

— هذا مؤلف لا يفهم المرأة . . المرأة عندما تواجه مسئولياتها فى البيت تتفرغ تماما لهذه المسئوليات الجدية ويصبح كل ما عداها فى هامش تفكيرها . انظر إلى رشيدة زوجة راضى وأنت تروى لها النكتة . . لقد تذكرت على الفور كالون باب شقتها فى الاسكندرية . . شدتها النكتة إلى مسئولياتها فلماذا لا تروى لزوجتك النكت بعيدا عن أعمال البيت ؟

— حدث ذلك أمس . قلت لها نكتة الطفل والممرضة ومفتاح الشقة .

— ولماذا لا تقول لها نكتة أخرى ؟

— أبدا . . أنا مصمم على أن أنجح فى اضحاكها بهذه النكتة . أولا . . هذا تحد . .

* * *

قال راضى لعبد الله : من عيوبك أنك تحكى النكتة دون أن تبتسم . إحك النكتة يا أخى وأنت تضحك ، فالضحك معد .

كان الليل جميلا رقيق النسمة والسيارة تتهادى على كورنيش المعادى عندما انفجر عبد الله ضاحكا ، والتفتت نحوه منيرة ضاحكة الوجه تسأل : ما الذى يضحكك ؟ . . وبدأ عبد الله يحكى لها نكتة الطفل والممرضة ومفتاح الشقة ، وقبل أن يكملها ، قاطعته منيرة معاتبة لأنه يضحك فى موقف مأسوى لطفل برىء يواجه الموت بعد ابتلاع المفتاح . ثم أردفت تقول : لقد زادت هذه الحوادث كثيرا .

* * *

فى التليفون ، كانت منيرة تحادث رشيدة عن حوادث ابتلاع الأطفال لمفاتيح الشقق . وقالت رشيدة إنها سمعت شيئا من هذا القبيل لا تذكر أين ، وتعجبت منيرة من أهالى هؤلاء الأطفال الذين يرتكبون غلطتين رهيبتين . . أولاهما أن أسرة كل طفل من هؤلاء الضحايا لا تضع مفتاح الشقة فى سلسلة ، ولو كان المفتاح فى سلسلة لاستحال على الطفل ابتلاعه ، أما الغلطة الأخرى فهى انهم يذهبون إلى طبيب مستهتر لا يتواجد فى عيادته معتمدا على الممرضة .

* * *

قالت رشيدة لراضى : هل سمعت عن حوادث ابتلاع الأطفال لمفاتيح الشقق ؟ . . ثم بدأت تقص عليه قصة كل طفل وكيف ذهب به أهله إلى طبيب متغيب عن عيادته باستمرار ، بينما الممرضة المستهترة تقول لكل أسرة : ولا يهمكم . . نعمل مفتاح جديد للشقة !

نظر راضى إلى زوجته ، ثم لم يجد ذلك الخبيث ما يقوله إلا أن هذه القصة من اختراع عبد الله ، فلا صحيفة اشارت إلى ذلك . ولا حتى إشاعة سرت بهذا المعنى .

* * *

عندما تكشفت الأمور لمنيرة وتبين لها أن عبد الله كاذب ، حمدت الله لأن الأطفال بخير ولم يبتلعوا مفاتيح الشقق ، لكنها لم تشأ ـ لفرط رقتها ـ أن تواجه عبد الله بأنه كذاب ، وفى ذات الوقت ، لم ييأس عبد الله من البحث عن الطريقة الصحيحة التى تحمل منيرة على الضحك عندما يروى لها نكتة الطفل والممرضة ومفتاح الشقة ، فقد تضخمت هذه المشكلة فى رأسه وأصبحت مسألة تحد وكبرياء ، ولابد أن تضحك منيرة مهما طال الزمن .

لثلاثة شهور ظلت تسمع من عبد الله حكاية الطفل والممرضة ومفتاح الشقة دون أن تعلق . وأخيرا انتصر عبد الله واستجابت منيرة لنكتته ، فسقطت مصابة بالانهيار العصبى .



خلق الله الرجل على نقيض المرأة ، فخلق المرأة فى منتهى الذكاء ! ولكى نقدر كم هى داهمة الذكاء . علينا أن نتصور تلك اللحظات العصيبة التى فوجئت فيها حواء بآدم أمامها بعد أن خرجت من ضلوعه . طبعا وجدت أمامها مخلوقا مخيف الشكل : جثة ضخمة وعضلات بارزة وشعرا أشعث ولحية كثة تحيط بالوجه وتتدلى إلى الأرض !

إن هذا المنظر لو واجهه رجل فى الخمس الأخير من القرن العشرين لشهر مسدسه على الفور ، وأطلق عيارين فى الهواء لارهاب هذا المخلوق المرعب ، ثم أدار قرص التليفون يطلب شرطة النجدة !

ولكن حواء واجهت هذا المنظر بثبات غريب وأعصاب تحسد عليها وهى تقف خلف شجرة ، ترقب آدام وقد رقد على الأرض إثر الإغماءة التى راح فيها ، بعد أن خرجت من ضلعه وتركت ظهره ينزف دما !

وما لبث آدم أن بدأ يتحرك وهو بين النوم واليقظة . كان يئن متوجعا . وعندما استيقظ تماما كان أنينه قد تحول إلى زمجرة مرعبة : آه ظهرى .. ضلوعى .. ظهرى ..

ومد آدم يده إلى غصن شجرة متدل يحاول أن يمسك به لينهض ، وهناك شهقت حواء شهقة مكتومة وقد بدأت تدرك قوة هذا المخلوق الغريب والشجرة تميل مع قبضة يده ، غير أن آدم فشل فى النهوض وقد اشتد الألم عليه ، ثم انتابته حيرة وهو يسائل نفسه : ماذا جرى بالضبط ؟ لماذا ينزف ظهرى دما ؟ لماذا كانت الاغماءة ؟ ثم يفكر بصوت مرتفع : ماذا حدث لى ؟

هنا يأتيه صوت حواء ناعما رقيقا : لقد كنت فى غيبوبة .
وتلفت آدم حوله : من الذى يتكلم ؟
— أنا ؟
— من أنت ؟
— أنا حواء .
— حواء من ؟

وأقبلت حواء نحوه فى حذر وتوجس لتبدأ أولى وأسوأ لحظات

سوء التفاهم بين أول امرأة وأول رجل فى الخليقة ، إذ بادرها آدم بقوله :

— ما هذا الذى أراه بيدك يقطر دما ؟
— هذه قطعة عظم يبدو أنها تخصك .
— قطعة عظم تخصنى ؟ أهو ضلعى ؟
— (باسمة) أجل .. يبدو أنه ضعلك .
— إذن فأنت التى حطمت عظامى .

وزمجر آدم . واختلطت أناته بالتهديد والوعيد ، ففرت حواء إلى بعيد وهى تعلن براءتها من كسر ضلعه . وحاول أن ينهض خلفها لكنه أخفق ، وبدت معالم القهر على وجه آدم وهى تعدو نحوه باسمة الوجه تقول : ما دمت تعجز عن النهوض فيمكننى أن اقترب منك بلا خوف . وزأر آدم :

— الويل لك ؟

وعلى مقربة منه جلست ، راحت تهمس اليه فى نبرة رقيقة أن يكف عن الغضب ، وأن يهدأ لكنه استمر يزمجر .

فجأة صرخت فيه حواء : اخرس وكف عن هذه التهديدات الفارغة . من تظن نفسك ؟ .. وبينما آدم مشدوه أمام المفاجأة واصلت حواء وهى تلكزه فى كتفه لكزة خاطفة ؛ أنت لست إلا ثرثاراً مملا يتشدق مغترا بقوته .

كان آدم لا يزال مبهوتا وحواء تلقى بأول أكذوبة ، فأوهمته بأنها تملك قوى عضلية خارقة تفوق قوته بمراحل ، وقصت عليه كيف باغتته من خلف ظهره وطرحته أرضا وأسلمته إلى غيبوبة حطمت خلالها ضلوعه ، ودللت على صدق دعواها بأن ضلعه كان فى يدها !

وتغيرت لهجة آدم . أصبح يخاطبها بأدب شديد ، ويسير خلفها منكس الرأس ، يسرع اليها عند أول نداء . ويستجيب الى كل أمر ، واكتشفت حواء أن آدم وهو مجرد من استعمال عضلاته مخلوق لطيف المعشر ، فيه وداعة أخاذة وطيبة أيضا !

وبينما هو جالس بجوارها تحت الشجرة نظرت إليه مليا ثم قالت :

— صورتك وأنت قريب مختلفة تماما !
— وكيف تبدو صورتى من بعيد ؟
— وحش مفترس .
— وما الذى غير صورتى عن قرب ؟
— عيناك يا آدم .
— ماذا فى عينى ؟ !
— شىء ما يجتذبنى وارتاح إليه .
— ......
— لم لا تقول لى كلمة ؟
— أخشى لو تكلمت أن أخطىء فتؤذينى .. يكفى ضلع واحد .

ولكن أكذوبة حواء لم تعش طويلا ، ففيما هى تعبث بقدمها فى الماء عند الشاطىء اختل توازنها وسقطت فى النهر ، وقبل أن تطلق استغاثتها كان آدم ينتشلها من الماء بين ذراعيه ، ورغم أنه ابتعد عن النهر كثيرا إلا أنها ظلت بين ذراعيه ، وارتاح هو إلى ذلك ، وارتاحت هى أكثر ورأسها يتوسد صدره .

— كم أنت جميلة لولا ..
— لولا . ؟
— أنا .. ؟؟
— تنتزعين ضلعا من ضلوعى ؟

وضحكت حواء . ضحكت كثيرا ، ثم قالت : هل صدقت أننى ذات قوى عضلية خارقة صرعتك ؟ . . ثم عادت تضحك وهى تروى القصة الحقيقية عندما فاجأته الغيبوبة وخرجت هى من ضلعه إلى الحياة .

ما إن وقف آدم على تفاصيل القصة حتى انقلبت سحنته وعلا منه زئير الغضب ، وفى خفة ورشاقة قفزت حواء من أمامه ثم لاذت بالفرار .

اختفت تماما . وبحث عنها آدم دون جدوى فى طول المكان وعرضه . وكانت هى ترقبه . بطرقها المختلفة . . مرة تكتم ضحكة وهو ينطق باسمها ثم علت وجهه حيرة بلهاء ، ومرة بثير الرعب وهو يناديها فى صيحة غضب .

كيف تواجه هذا الوحش ؟؟ وما السبيل إلى معايشته ؟

ذلك هو السؤال الذى خطر على فكرها عندما ضبطها آدم مختفية فوق شجرة توت . ولا أحد يعرف حتى الآن ـ إلا حواء نفسها ـ هل عثر آدم عليها بمجهوده الشخصى فوق شجرة التوت ، أم هى التى تعمدت أن توقع بنفسها فى شراكه وتركته يعتقد أنه هو الذى عثر عليها وأوقع بها ؟

— حواء ـ سامحنى.
— آدم ـ لن أسامح كذابة .
— حواء ـ الكذب سلاح الضعفاء .
— آدم ـ لن أغفر لك .
— حواء ـ الأقوياء يتسامحون ياسيدى القوى العظيم .
— آدم ـ انزلى وإلا صعدت إليك .
— حواء ـ كلا . لا تصعد . أخاف عليك .
— آدم ـ مم تخافين ؟

— حواء ـ اننى فوق فرع ناحل لايكاد يحتملنى .
— آدم ـ تخافين على من السقوط !
— حواء ـ ولم لا ؟ . .
— آدم ـ كم أنت كذوب !
— حواء ـ ألم أخرج من ضلعك . ألست قطعة منك ؟ طبيعى أن أحبك .
— آدم ـ نادراً ما أفهمك .
— حواء ـ أشرح لك : الحب إحساس يخلق فى الإنسان الخوف على انسان آخر . .
— آدم ـ كفى عن هذه الثرثرة وانزلى وإلا صعدت إليك .
— حواء ـ كلا لا تصعد . سوف أنزل .

وتبدأ حواء فى النزول وهى تبكى ، ويأمرها بأن تحتضن شجرة مجاورة ليوثق يديها .

آدم ـ سأعطيك درسا لن تنسيه .
حواء ـ إنى راضية .
آدم ـ سوف أوثق يديك .
حواء ـ وسوف يسعدنى ذلك .
آدم ـ يسعدك ؟
حواء ـ لمسة يدك وأنت تشد وثاقى سوف تشعرنى بالطمأنينة .
آدم ـ بودى لو أفهمك !
— حواء ـ لا يعنينى أن توثقنى ـ كل ما يعنينى أن أشعر أنى فى حماك أيها السيد القوى المهاب !
آدم ـ هل ترينني قويا ؟ (ثم مستدركا) على أى حال لا يهمنى رأيك .
حواء ـ بل يجب أن يهمك .
آدم ـ ولماذا يجب ؟

حواء ـ لأننى أنا التى سوف ترى نفسك فيها إلى الأبد .
آدم ـ ماذا تعنين ؟
حواء ـ أنا نصفك الآخر . . أنا وأنت واحد صحيح يكمل كل منا الآخر .
آدم ـ أنا واحد صحيح قبل أن تأتى أنت . . وأنا واحد صحيح بعد أن أتيت أنت .
حواء ـ صدقت ياسيدى . . بدونك أنا لست إلا نصف مخلوق ضائع .
آدم ـ يروقنى خضوعك لمشيئتى بالقوة .
حواء ـ بالحب .
آدم ـ بالقوة .
حواء الحب أقوى من كل قوة .
آدم ـ ولكن الحب جاءك من إعجابك بقوتى .
حواء ـ الحب لا يأتى إلى قلب إنسان لأنه معجب بإنسان آخر .
آدم : كيف يأتى الحب إذن ؟ !
حواء : الحب يأتى إلى قلب إنسان . . لأن إنسانا آخر اهتم به .
آدم ـ ولكنى لا أهتم بك .
حواء ـ بل انقذتنى عندما سقطت فى النهر . . كنت حريصا على وجودى بجوارك .
آدم : لا لسوء الحظ .
حواء ـ انى بجوارك ؟
آدم ـ أتحدث عن هذا النبات الليفى . . إنه لا يصلح لشد وثاق يديك مع إنى صنعت منه سوطا لأضربك به .

وتلفت آدم حوله فلمح الكثير من الألياف التى تصلح لعمل جدائل ، واستمهل حواء لحظة بعد أن توعدها بالويل إن هى

حاولت الفرار ، وابتعد آدم ليعبر فوق الكمين الذى فرشته حواء بأوراق الموز ، ثم سقط آدم فى الجب الذى حفرته خلال هروبها منه .

وتقبل حواء نحو الجب تطل على آدم وقد تصنعت الهلع .

— آدم . . ما الذى جرى لك يا حبيبى ؟
— كما ترين . .
— لا عليك . . سأنقذك حالا .

وبسرعة جدلت له حواء سلما ألقت به إليه حتى استطاع آدم أن يخرج بسلام .
آدم ـ ظهرى . . آه . . عاد الألم إلى ظهرى .
وتحت شجرة جلست حواء وقد توسد آدم ركبتها ، بأناملها الرقيقة تضمد جراحه ، وتمسحها ، وبكل الحنان تدلك عضلات ظهره ، ويخفت أنين آدم . وبين اليقظة والنوم تسأله :
— هل أجمع لك بعض الألياف لتوثق يدى .
ويأتى صوته :
— لا لا . . لا داعى لذلك .

وترفع السوط المجدول الذى أعده لضربها وتسأله : هل أنت فى حاجة إلى هذا الشىء لكى . .
ويقاطعها : لا لا لا . . إلقى به بعيدا وهات يدك فى يدى . .
وتعطيه يدها ويستغرق فى نوم طفل .
وفى تلك اللحظة كانت حواء تسجل اختراع أول لعبة فى تاريخ البشرية وهى لعبة مصارعة الثيران حيث يواجه الإنسان عضلات الثور بالذكاء الإنسانى .

ولكن حواء كانت أرحم من « الميتادور » عندما نام آدم على ركبتها فلم تغرس السكين فى يافوخه !



من الحماقة أن أعترض على ما تدعيه زوجتى بشأنى ، فماذا يضيرنى إن ادعت زوجتى اننى كنت أول دفعتى فى التخرج ؟ . . وإذا جاء ذكر التنس روت عن بطولاتى السابقة التى لا أعرف عنها شيئا ، وعند الحديث عن الشطرنج فأنا اللاعب الذى لايقهر ، وفى معرض الكلام عن أناقة الرجال تقول زوجتى إننى أصنع بدلى « تفصيلا » عند أنريكو فى روما « لست أدرى من أين أتت بهذا الاسم » ترزى جريجورى بيك وانتونى كوين والملك امبرتو « لا أعرف ملكا بهذا الاسم) .

على أية حال : مثل هذه الزوجة المحبة من السخف طبعا أن أراجعها فيما تذهب إليه من روايات لاتستهدف منها إلا أن تزهو بى وتفخر ، وترفع رأسى عاليا أمام الأهل والأصدقاء .

وبالأمس عرفت أن فى القاهرة مطعما فاخراً اسمه بومبى ، فقد سمعت زوجتى فى الغرفة المجاورة تحكى لصديقة فى التليفون : تصورى . . لقد فوجئت بزوجى يتصل بى فى الواحدة ظهرا بأنه قادم ومعه صديق عزيز لم يره من أيام الجامعة ليتناول الغداء معنا . . أجل ياعزيزتى . . إنها عادة قبيحة فى هؤلاء الأزواج الملاعين الذين لا يقدرون مثل هذه المواقف الدقيقة . . المهم . . كان المستحيل احراج أى خروف من الـ « ديب فرزير » فالوقت ضيق . . ماذا تظنين أنى قد فعلت ؟؟ . . وحياتك اقترحت على زوجى أن يدعو ضيفه إلى مطعم بومبى ثم الحق أنا بهما هناك . . طبعا طبعا . . أعرف أن الأسعار فلكية فى مطعم بومبى ، فقد ترددنا عليه كثيرا من قبل .

استمرت زوجتى تروى بالتفصيل ماذا أكلنا فى مطعم بومبى ، وإذا كانت زوجتى تتمتع بذاكرة جيدة ، فإننى لا أذكر مطلقا أننى ذهبت إلى مطعم بومبى ، لا أمس ولا أمس الأول ، ولا أى يوم . غير أننى كنت أستمع إلى حديث زوجتى هذا بلا أية دهشة ، فلقد روضت مراكز الدهشة فى مخى على مواجهة مثل هذه المواقف ، ثم اننى أعرف أن محتويات الـ « ديب فريزر » فى بيتنا عبارة عن أجسام مجمدة ومجهولة الهوية لإنها محاطة بالصقيع الكثيف ، ولقد بذلت جهدا مضنيا خلال سفر زوجتى لأصل إلى هوية هذه الأجسام ، فتبين أنها جذوع أشجار وضعتها زوجتى للزعم بأنها لحوم وخراف أمام من يفتح الفريزر من الأهل والأقارب .

ومع ذلك ، فمن التجنى أن نقول ان القصة التى روتها زوجتى هى كذب على طول الخط . لقد حدث بالفعل أننى اتصلت بها فى التليفون وقلت إن صديقا قديما لى سيكون معنا على الغداء ، فلما ثارت قلت لها معتذرا : اننى أعرف أننى أضعك فى ظروف بالغة السوء كربة بيت ، ولقد دعوت صديقى هذا ليتناول الغداء وما تصورت أنه سوف يلبى الدعوة على الفور ، فعلينا أن نواجه هذا الأمر الواقع مهما كانت المتاعب .

فى البيت ، انتحت بى زوجتى لتكشف بشكل دراماتيكى عن الحقيقة : ليس هناك سوى خمس شرائح متوسطة من اللحم ، وأن الوقت سيطول حتى يمكنها طهو اللحم المتجمد الذى أخرجته من الثلاجة ، ولكنها ستحاول أن تعوض فقر المائدة بأطباق السلاطة . ثم ارتفع صوت زوجتى بتحذير حاد النبرة بألا أدعو الضيف إلى أكل المزيد من اللحم بعد الشريحتين اللتين ستضعهما فى طبقه ، حتى يكفينا الطعام جميعا .

ساءنى كثيراً أن الضيف التهم الشريحتين بسرعة مذهلة ، فهو من ذلك النوع الذى لايضيع الوقت فى مضغ الطعام ، ووجدت نفسى أدعوه إلى شريحة ثالثة ، فتردد فى قبولها ، ثم أعاد يدى بها ، والححت عليه بينما هو يرفض معتذرا وقد احمر وجهه خجلا أو ارتباكا .

ولا متنى زوجتى ـ بعد انصرافه ـ لاننى كنت الح عليه ليأكل نصيب زوجتى من اللحم ، وحتى لا أدخل معها فى نقاش عقيم قلت لها : لا تؤاخذينى فقد نسيت تحذيرك .
قالت زوجتى : كيف نسيت وأنا طول الحاحك عليه أركلك فى ساقك تحت المائدة ؟
وعرفت لماذا ارتبك الضيف ، فلم تكن زوجتى تركلنى أنا .

هذه القصة تحولت فى فم زوجتى إلى دعوة للغداء فى مطعم بومبى الفاخر ، وحوت ـ بفضلها ـ من التفاصيل المشرقة ما يعزينى من وقائع مؤسفة كضرب الضيف فى ساقه .

* * *

عندما قالت زوجتى ـ ضمن الكثير الذى تقوله ـ أن لى رصيدا كبيرا فى المصارف ، لم أكن أعرف أن صداقتى لشقيقها شوقى سوف تتعرض لمحنة قاسية ، إذ جاءنى شوقى وقد قرر أن يطلق زوجته سلمى ، وسألنى أن أقرضه من « أموالى » لكى يدفع مؤخر الصداق ونفقة سنة .

كان من السخف أن أقول له ليس لى من مال فى هذه الدنيا إلا مرتبى ، فلكم أفاضت زوجتى فى الأحاديث أمامه عما لى من أرصدة فى البنوك ، بينما أنا أجلس صامتا أستمع إلى ما ترويه زوجتى دون اعتراض .

كانت البداية الأولى للتخلص من المأزق هى أن اثنى شوقى عن فكرة الطلاق ، فأهبت به أن يبتعد عن الشيطان ويعوذ بربه من أبغض الحلال عند الله ، وقلت له إن الإنسان لو فكر تفكيراً سليما فلا يمكن أبدا أن يقدم على الطلاق .

قال شوقى فى هدوء ـ وهو دائما هادىء ـ ان الإنسان لو فكر تفكيرا سليما فلا يمكن أبداً أن يقدم على الزواج .
ثم أردف يقول بنفس الهدوء : لقد قال لى ابننا الصغير مجدى ذات مرة : كيف تزوجت أمى يا أبى ؟
قلت لشوقى : وماذا فى هذا السؤال البرىء من جانب الطفل ؟
قال شوقى : حتى الولد الصغير تعجب لبلاهتى . . كيف تزوجتها !

طالت المناقشة مع شوقى ووضح أنه مصمم على الطلاق ، وفى غرفة أخرى همست لزوجتى إننى يجب أن أقول لشوقى الحقيقة ، وهى أننى لا أمتلك درهما فى أى مصرف ، غير أن زوجتى ضربت صدرها بيدها وهى تشهق : يا للفضيحة ! أتريد أن تكذبنى بين أهلى ؟ .. أتريد أن يعرفوا أننى قد تزوجت رجلا بلا قيمة .. أقصد ...

هدأت من روع زوجتى حتى أنقذها من الحرج بعد أن أفصحت لى عن حقيقتى ، وما أن هدأت حتى أخذت تربت على ظهرى حتى لا أفزع من ثروتى الوهمية ، وتعهدت بأن تقنع أخاها باستحالة الاقتراض من أموالنا فى البنوك والمهم ـ كما قالت ـ أن أتوجه بسرعة إلى سلمى زوجة شقيقها ، وأقنعها بأن تبادره بالصلح .

أمضيت ساعتين مع سلمى دون أن أنطق حرفا ، فقد كان من المستحيل مقاطعتها فى الحديث ، وعدت لأجد زوجتى قد تصرفت بذكاء نادر ، إذ قالت لشقيقها إن أموالنا المودعة فى البنوك قد اتخذنا ـ من زمن ـ الاجراءات لتجميدها من أجل مستقبل الأولاد ، فلا نستطيع أن نصرف منها قرشا واحدا ، لكننا نستطيع فقط أن نودع ونضيف إليها .

بعد يومين زارنى شوقى فى مكتبى وقال لى : لقد التقيت بمدير البنك ، وشرحت له حاجتك إلى سحب مبالغ من رصيدك المجمد ، فأبدى الرجل روحا طيبة لأنه صديق قديم لى ، وأرشدنى إلى الاجراءات الواجب اتخاذها وهى سهلة وميسورة .

تقاعست فى كتابة الطلب الذى سألنى شوقى أن أكتبه للبنك ، واعتذرت فى النهاية بأن زوجتى ـ بصراحة ـ لا تسمح بذلك . ورمقنى شوقى بنظرة صامتة طويلة ثم قال بهدوئه المعهود : أنت نذل . وانصرف .

* * *

كان صوت زوجتى يزهو بنبرة فخر وهى تعدد مصادر دخلى وثروتى ، وظللت أستمع ساعتين كاملتين إلى زوجتى وقد تجاوزت فى رواياتها كل الحدود ، حتى وجدتنى أصرخ بصوت أليم .. كفى !

ومد الرجل يده وأوقف المسجل الذى يتضمن اعترافات زوجتى ، وأمضيت الليلة الثانية فى السجن بتهمة التهرب من الضرائب .

* * *



فجأة ، أعلنت خطيبتى سوسن قطع العلاقات بينى وبينها بلا سبب ، وبعد ليال من السهد والضنى عرفت السبب .

فقد قرأت خطيئتى فى الصحيفة اليومية باب حظك مع النجوم الذى يكتبه الدكتور بهنوش الفلكى ، وجاء تحت مواليد برج العقرب ـ برجها ـ « شخص يتظاهر بإبداء العواطف المشبوبة نحوك فلا تنخدع وكن حذرا دائما من مواليد برج الثور » .

وسعيت لدى الفلكيين من المنجمين لكى أثبت أن مواليد الثانى والعشرين من شهر مايو ينتمون إلى برج الجوزاء وليس إلى برج الثور ، فانقسم الفلكيون بشأن جنسيتى البرجية ، وأشار صديق بأن أحصل على شهادة موقعة من الدكتور بهنوش نفسه بأننى من مواليد برج الجوزاء ، ولكن بهنوش أصر على أننى من مواليد برج الثور ، غير أنه أعاد حساباته الفلكية بدقة ، فوجد أننى جوزائى البرج ، وذلك عندما وضعت فى يده خمسة جنيهات .

وأرسلت الشهادة إلى سوسن وعليها رقم تليفونه وموقعة بامضائه ، وفى اليوم التالى قرأت خطيئتى فى باب حظك مع النجوم : « محاولات فاشلة من مواليد برج الثور لتضليلك واقناعك بغير الحقيقة » .

ولست فى حاجة إلى وصف ما آل إليه حالى ، فقد أحببت سوسن حبا جنونيا ، وكان هذا طبيعيا ومنطقيا لأنها لم تصبح زوجتى بعد .

فى مبنى الجريدة وقفت أصيح مطالبا برؤية ذلك الفلكى الملعون الذى غير مسار النجوم والكواكب بخمسة جنيهات ، وهدأوا من ثورتى ثم قادونى إلى الاستاذ محرم ، وهو شاب مهذب أحسن استقبالى ، وعرفت منه أن الدكتور بهنوش يسبب لهم المتاعب مع القراء ، فالفكرة من باب البخت هو أن يتفاءل القارىء بكلمات طيبة عن يومه الجديد ، لكن الدكتور بهنوش رجل غريب الأطوار معكوس التفكير ، فهو ينذر كل عاشق بمصيبة فى الطريق ، بينما يبشر كل متزوج بيوم سعيد .

وقال لى الأستاذ محرم : إنه يحذف الكثير مما يكتبه هذا البهنوش ، ويجتهد فى أن تكون النجوم على هوى الناس ، لا أن يكون الناس على هوى النجوم ، ورغم أن العشاق غالبا ما يبدون حمقى فى القول والفعل ، إلا أن الاستاذ محرم لم يشعرنى بحماقتى ، فقد استمع منى باهتمام الى تفاصيل صغيرة وشئون تافهة ، ثم عبر بتعاطف شديد عن ادراكه لحجم محنتى العاطفية ، وانتهى هذا التعاطف من جانبه إلى أنه كتب لسوسن فى باب حظك مع النجوم : « أنت محظوظ لأن هناك إنسانا من برج الجوزاء يحبك حبا عظيما ، فلا تجرح مشاعره وأقبل هديته بقلب ممتن » .

ذهبت إلى سوسن فى نفس اليوم . وعندما قدمت إليها السوار الذهبى ـ هدية الصلح ـ حفلت به كثيرا ، فهذه الهدية التى هى جزء من نبوءة اليوم تثبت صحة النبوءة كلها من أننى جوزائى ولست ثورا ، وأننى أحب سوسن حبا عظيما .

وعندما نظرت إلى سوسن بعينيها الصافيتين رأيت فيهما الحب يخاطبنى . لقد كانت نظرتها مزيجا من الامتنان والاعتذار ، وأدركت لحظتها أن الاستاذ محرم قد أصبح من أهم ضرورات حياتى . إن هذا الشاب المهذب الفاهم ـ بما أصبح يكتبه من أجلى فى باب البخت ـ تحول بالنسبة لى إلى خبير مفرقعات يبطل مفعول القنبلة قبل انفجارها . أوهو ماصة صواعق كالتى ترتفع فوق البنايات لتجتذب الصاعقة وتفسد أثرها ، أما الباب نفسه ـ حظك مع النجوم ـ فقد صار أشبه بريموت كونترول ، يوجه تصرفات سوسن عن بعد كما أبتغى وأريد .

وينبغى أن أعترف أن الصداقة التى جمعت بينى وبين الاستاذ محرم أحالت أيامى مع سوسن إلى شهد وعسل ، وفى الأيام التى كان يسافر فيها محرم إلى الخارج كنت أصبح تحت رحمة ما يكتبه الدكتور بهنوش فى برج سوسن .

وعندما كتب ذات مرة فى برجها : « خسارة مادية فى محيط الأسرة » . نشطت فى رأسى أفكار ميكيافيللية منحطة لا تبالى بسفالة الوسيلة للوصول إلى الغاية ، ففكرت فى أن أهشم زجاج سيارة والدها حتى لا تهتز ثقة سوسن بالنجوم التى تسير حبنا وهوانا ، ولو كنت أعرف النشل لسرقت محفظته ، وطاف برأسى من هذه الأفكار كل ما يطوف برؤوس اللصوص والمخربين وذوى العاهات العقلية ، ثم جاءت المصادفة الجميلة ، فاعتبرت سوسن أن النبوءة قد تحققت وأن الخسارة المادية قد وقعت فى محيط الأسرة عندما اكتشفت أن العتة أكلت المايوه البكينى ، وكانت فرحتى مضاعفة بخبر هذا المايوه الذى كنت أبغضه لصغر حجمه ، الأمر الذى يؤكد أن العتة التى أكلته كانت عاملة ريجيم .

ولقد مضى كل شىء كما أرجو وأتمنى لولا أن سوسن التى باتت مجنونة بكتب النجوم والأبراج وقع فى يدها كتاب يؤكد أننى من مواليد برج الثور ، فقد اتصلت بى تليفونيا قبل منتصف الليل وقالت ان من بين الصفات التشريحية التى ذكرها الكتاب ما ينطبق على شخصى ، فأنا قدمى كبيرة ، وخلف رقبتى شامة ، وعندى بعض التخلف العقلى .

ولأننى أدرك بشاعة الانتماء إلى برج الثور عند سوسن ، فقد هونت عليها الأمر ضاحكا ، وذكرتها بشهادة الدكتور بهنوش التى تشهد أننى جوزائى ، ولكنها أغلقت السماعة فى وجهى ، وعاودت الاتصال بها فرفعت سماعة التليفون .

ضغطت الجرس ، وبعد قليل فتح لى والدها الباب وهو بملابس النوم يفتح عينيه بصعوبة ، يبدو أن الليل كان قد جاوز المنتصف . خطوت لى الداخل بينما وقف الرجل متوجس الملامح :

— خير يا ولدى ؟؟

قلت له والانفعال يتملكنى : يا عمى لابد أن تعرف سوسن اننى لست من مواليد برج الثور . . انظر إلى قدمى ياعمى . . مقاس قدمى واحد وأربعون يا عمى . . انظر إلى حذائى . . هل تراه قاربا أم حذاء . . غير صحيح أن قدمى كبيرة ياعمىُ . . ثم هل ترى فى قفاى شامة ؟ ! كنت قد اقتربت منه وكشفت له قفاى متسائلا :
هل تسمى هذه النقطة كرأس الدبوس شامة ؟!
تمتم الرجل : لا حول ولاقوة إلا بالله .

فواصلت متسائلا : هل ترانى يا عمى مصابا بالتخلف العقلى ؟
فعاد يتمتم : لا حول ولا قوة إلا بالله .
ودعنى الرجل وهو يدفعنى برفق إلى الباب ويعدنى بأنه سوف يبلغ سوسن أننى لست من مواليد برج الثور وأننى غير متخلف عقليا ، وقدمى صغيرة ، وليس فى قفاى شامة .

* * *

مرة أخرى أدين بالفضل لصديقى الأستاذ محرم ، فقد التقى بسوسن كمجرد صديق لى ، وجلب لها كتابات الفلكيين ليثبت لها بالدليل المادى أنهم لايستقرون على صفات ثابتة لمواليد كل برج ، فبينما يقول كتاب لأحدهم ان مواليد برج القوس لهم أنف رومانى ، يقول كتاب آخر إن مواليد برج القوس لهم أنف أفطس ، وبينما يقول فلكى إن مواليد برج الميزان مبتهجون على الدوام ، يقول آخر إن مواليد برج الحمل متزوجون على الدوام .

ولانت سوسن واستسلمت ، غير أن مفاجأة حدثت فقد أصر والدها على فسخ الخطبة لأننى متخلف عقليا . لقد أعرب الرجل عن أسفه الشديد لأنه كبح جماح يده ومنعها من أن تمتد إلى قفاى . . وأنا أدعوه إلى فحص الشامة خلف رقبتى فى الساعة الواحدة صباحا .

ولست أدرى ما الذى جعل والد سوسن من ذوى الاهتمامات الفلكية ، إذ أقسم أمام الجالسين أننى من مواليد برج الثور ، وأننى كذاب ومخادع وضعيف العقل ، وأنه سوف يسأل ـ إذا أصرت سوسن على الزواج منى ـ إذا كان من الممكن التفريق بينى وبينها لعدم التكافؤ بين برج العقرب الشريف وبرج الثور الخبيث .

وقد كان الاستاذ محرم لبقا كعادته فى ذلك المجلس وهو يتصدى للدفاع عنى شارحا جنون المحبين ، فكلما زاد الحب فى القلب طغت اللوثة على العقل ، وأن الحماقة طرطور مضحك على رؤوس العشاق لايراه إلا العقلاء !

عاد باب حظك مع النجوم يقوم بمهمة توجيه سوسن عن بعد ، وهدأت أيامى . وكلما رقت حبيبتى أشتد ضعفى حيالها ، وتروى لى سوسن عن خلافها مع والدها ودفعها لدعواه بأننى متخلف عقليا ، فأترجم عرفانى بجميلها بأن أرفع سماعة التليفون ليكتب الاستاذ محرم فى باب البخت :
— هدية ثمينة من الإنسان الذى يعطيك الحب بسخاء .
— هدية ثمينة من الإنسان الذى لن تعوضى حبه .
— هدية ثمينة من الإنسان الوحيد الذى لا يتردد فى أن يفتديك بروحه .

وتوالت هدايا من الماس والذهب والأحجار الكريمة ، ولم يكن يعنينى أن تقتطع هذه الهدايا جانبا من ميراثى ، لكن هذا لم يرض صديقى الاستاذ محرم الذى رأى أننى أبدد ثروتى فيما لا يجدى ، وكان ينبغى أن أفكر فى مستقبلى مع سوسن باعداد المسكن المناسب لها وتأثيثه بأفخر الأثاث .

حقا لقد غاب هذا كله عن فكرى فى غمرة اندفاعى العاطفى . وانقطعت هداياى . لكن انقطاع الهدايا عن سوسن سوف تعوضه المفاجأة الكبرى السعيدة التى أعددتها لها . وعندما أتممت اجراءات تسجيل الشقة الفاخرة المطلة على النيل باسم سوسن ، كانت سعادة سوسن لا توصف وهى تقيم فيما بعد أن تزوجت من الأستاذ محرم .

***

معبود النساء !

فى أمسيات الصيف كانت تجمعنا حديقة النادى ، واعتدنا أن نستمع بين حين وآخر إلى ما يعانيه صديقنا رياض من متاعب زوجية ، فرغم أنه محب لزوجته وينشد معها حياة هادئة إلا أنه يفتقد اللباقة والكلمة الطيبة ، فهو عندما ذهب بصحبتها إلى حفل خيرى تقدمت نحوه فتاة صغيرة تمسك بوردة وقالت له : اشتر وردة لهذه السيدة التى تحبها ، فقال ببراءة : كلا هذه زوجتى .

وعندما أبدت زوجته رغبتها فى اقتناء قطة سيامية قال لها ـ وهو صادق ـ هل تعرفين أننى أيام كنت متعلقابك قبل الخطبة كنت شديد التعلق بالمعيز ؟ وعندما سألته مرة عن نتيجة الريچيم القاسى الذى اتبعته قال لها بحسن نية أن الشىء الوحيد الذى « رفع » فيها هو صوتها .

وعندما وجهنا إليه النصح بأن يقول لزوجته كلمة طيبة إذا ارتدت فستانا جديدا أو عادت من عند الحلاق أو طهت له طعاما ، نفذ النصيحة فى اليوم التالى ، فقد اسهب فى امتداح طهوها مؤكدا انه لم يذق طعم مثل هذا السمك فى حياته . واتضح انها اشترت الوجبة جاهزة من السوق .

ولقد كان رياض هدفا لنصائح مضادة من الاستاذ سيف الدين ، وهو رجل على مشارف الخمسين ، جذاب الحديث ، فنصح رياض بأن يعامل زوجته بقوة وخشونة كما اعتاد هو أن يعامل دورا شريكة حياته ، فالنساء لايعرفن غير لغة القوة ، ولابد للرجل أن يعيد سلطانه القديم المفقود .

وأحدثت نصيحة سيف الدين لرياض أثرا ملموسا شاهدناه بأنفسنا حول عينه اليسرى مع خدش فى انفه ، ولم يكن رياض هو الضحية الأولى ، فإن بعض الذين كانوا يشاركوننا أمسيات الصيف استهواهم مذهب سيف الدين فى معاملة دورا ، فتعرضوا لمتاعب شديدة كان من بينها التردد على محاكم الأحوال الشخصية .

ولقد حاول الدكتور عقيل أن ينصح سيف الدين بأن عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء ، وأن عصر جدنا وجدتنا طواه الزمان . كانت جدتنا تغفر لرجلها كل أخطائه المقصودة وغير المقصودة ، وكانت تصدع لأوامره بلا نقاش .

وروى الدكتور عقيل أن جده كان يحكى لجدته كم هو مجنون بها فى اليقظة وفى المنام ، فلما قالت له الجدة انها سمعته يلفظ فى نومه باسم فاطمة وليس باسمها « وجدان » قال لها ألا تعرفين أننى أناديك فى منامى باسم فاطمة ؟ وقد سعدت الجدة وجدان كثيرا بذلك وقالت له بعد أيام : ليلة أمس عرفت أنك تنادينى فى منامك باسم زينب أيضا !

هنا صاح سيف الدين : أرأيت ؟؟ كانوا رجالا بحق . ثم مضى يروى أن جده استيقظ ذات صباح ليجد ان زوجته جثة هامدة بجواره فنهض من الفراش بهدوء ونبه على الخادم أن يكون الفطور بيضة واحدة بدلا من بيضتين كالعادة ، وبعد أن تناول فطوره بدأ يبكى المرحومة ، وقد علل تصرفه بعد ذلك بأنه كان ينبغى أن يتناول فطوره أولا حتى تكون لديه القوة على البكاء .

واختلفت التعليقات حول هذه القصة ، فأشاد رياض بمتانة أعصاب الجد ورباطة جأشه ، وحمد له الدكتور عقيل أنه أنتوى البكاء على المرحومة واستعد لذلك فتزود بالطعام والطاقة ، وقال المستشار أبو النور أنه كان بخيلا ، ودفع سيف الدين عن جده تهمة البخل والتخلص من زوجته توفيراً للنفقات والبيض ، فقال إن جده كان ينحر الذبائح ويوزع العطايا بسخاء على روح المرحومة . وعقب المستشار أبو النور قائلا : ان الذبائح والعطايا هى من سمات المناسبات السعيدة أيضا .

لأول مرت تكلم يوسف وهو ضيف عابر جاء مع الدكتور عقيل وكنا نراه لأول مرة ، فسأل سيف الدين ان كانت قصة جده حقيقية .

— قال سيف الدين : طبعا حقيقية .

— استيقظ فوجد جدتك جثة هامدة ثم . . .

وقاطعه سيف الدين : لم تكن جدتى . . كانت الزوجة الرابعة .

— بعد وفاة جدتك ؟

— ووفاة الثانية والثالثة . . ولقد كان جدى ينوى الزواج من الخامسة لولا حادث مفاجىء وقع له هو الوفاة .

— عاد الحديث مرة أخرى عن عصر سيطرة الرجل على الحريم وكيف كان الزوج يخيف زوجته بشوارب يقف عليها الصقر .

— قال عقيل : كانت الشوارب التى يقف عليها الصقر رمزا للقوة لكنها لم تعد كذلك عندما اكتشفت المرأة فى العصر الحديث أن الصرصور أيضا له شوارب .

قال يوسف ـ الضيف العابر ـ هل كان أنف جدك أحدب ؟ . . هل كان كثيف الحاجبين ؟ . . هل . . هل . . .

أدهشنا كثيرا أن سيف الدين أجاب على معظم الأسئلة بالإيجاب وهو مأخوذ .

قال عقيل : ان يوسف ضليع فى علم الفراسة . انه مولع بدراسة الوجوه ، وله تجارب كثيرة فى معرفة خفايا الإنسان من ملامح وجهه وصفاته الجسمانية ، بل هو أيضا يمتلك القدرة على قراءة الأفكار ولهذا فإن زوجته محرومة من النعمة التى تتمتع بها كل زوجة وهى أن تلعن زوجها فى سرها .

ضحكنا ، لكن سيف الدين كان جاد الملامح وهو يسأل يوسف : وماذا ترى من صفات جدى وملامحه .

قال يوسف ضاحكا : معبود نساء يا سيدى .

طرب سيف الدين طربا شديدا وهو يقول : لا شك فى ذلك ، فقد كان خشنا وقويا وفظا .

— قال المستشار أبو النور : فظا ؟؟

وأكد سيد الدين : فظا . . فالمرأة تحترم الرجل الخشن القوى

القادر على حمايتها . لقد كانت الشوارب من لوازم هذا المظهر ، والكرباج أيضا .

قال الدكتور عقيل : لاتنس أن أيام جدك عشقت المرأة أيضا موضة رودلف فالنتينو ، وهو نموذج للرجل الرومانسى الشاعرى الذى يعامل المرأة فى رقة بالغة وحنان بلا حدود .

قال سيف الدين : ان المرأة قد تميل حينا إلى الرومانسية لكنها لا تستطيع أن تحتمل كل الوقت رجلا ناعم المعاملة ، تقاطيع وجهه جميلة ذات طابع نسائى مثل رودلف فالنتينو ، فهى تحن فى معظم الأحيان إلى رجل خشن الوجه والصوت والمعاملة ، ولهذا ماتت موضة رودلف فالنتينو بموته ، وظهر كلارك جيبل يعلن العودة إلى الأصل .

كان سيف الدين ـ رغم حركاته العصبية ـ شديد الاقناع ، فاكتسح كل مناقشيه ، وخيل لبعضهم ـ لفرط الاقناع ـ أن يشترى قبل عودته إلى البيت كرباجا لزوجته !

* * *

فى اليوم التالى جاء الينا الدكتور عقيل بخبر غريب ، قال ان صديقه يوسف الضليع فى الفراسة اضطر أن يقول لسيف الدين إن جده معبود نساء ، لأنه خجل من أن يقول أن ملامح الجد تؤكد انه سفاح نساء ، وانه تخلص من زوجاته بطريقة غامضة ولئيمة ، ولو كانت خادمة الجد على قيد الحياة لشهدت بأن مخدومها طلب اليها ـ أربع مرات فى حياته ـ أن يكون الافطار بيضة واحدة بدلا من بيضتين !

وأكد يوسف أن سيف الدين ـ رجل مخبول ومختل وأنه ـ مثل جده ـ لديه استعداد طيب للاقدام على مذبحة نسائية ، وأن هناك خطرا حقيقيا على دورا زوجته .

وقال المستشار أبو النور أن نظرية لومبروزو تؤيد ما ذهبت إليه فراسة يوسف ، إذ قضى لومبروزو حياته كطبيب شرعى فى تشريح جثث المجرمين وتدوين ملحوظاته على السمات المشتركة بينهم فى الملامح والصفات الجسمانية .

واستولى هذا الموضوع على اهتمامنا تماما ، ولعل ما ضايقنا هو أن سيف الدين كان يأتى إلى النادى بشكل غير منتظم . نراه ليلة وينقطع ليالى ، ولم نكن نعرف عنه إلا أن اسمه سيف الدين ، وأنه كان يجلس إلى مائدة مجاورة لنا ذات ليلة ثم انتقل إلى مائدتنا يشاركنا الحديث ، وانه صاحب مدرسة فى معاملة المرأة ، وأنه يطبقها على شريكة حياته دورا ويزهو بذلك .

فى الليالى القليلة التالية التى تردد فيها على بالنادى بعد ذلك راقبنا تصرفاته بدقة ، وكان فخره بإهانة دورا يتصاعد كلما وجد لكلامه وجوها مبهورة لأزواج مغلوبين على أمرهم .

وكانت الليلة الأخيرة التى رأينا فيها سيف الدين سفاح النساء .

أنصتنا إليه وهو يتساءل : لماذا تتزين المرأة بالذهب والأحجار النفيسة ؟ لماذا تحيط معصمها وجيدها وزندها وقدمها بالأساور والسلاسل والخلاخيل ؟ أنه حنينها الدائم إلى القيود والسلاسل التى كان يقيدها بها الرجل فى العصور الأولى ، هكذا تعتبر المرأة القيد زينة وجمالا ، فهى خلقت تستعذب الخضوع .. ليتكم تشاهدوننى فى البيت وأنا اضرب دورا وأهينها . ومهما فعلت بها ، فإنها تسعى دائما خلفى تطلب عفوى ورضاى .

لقد رأى المستشار أبو النور فيما قاله سيف الدين مؤشرا واضحا على ميله الجنونى الى التعامل الدموى مع المرأة ، فاستقر رأيه على

ان يبلغ السلطات بهدف حماية دورا من هذا المجنون ، وعندما لم يعد فى المجلس إلا المستشار أبو النور وسيف الدين ، أراد المستشار أن يتوثق من الأمر فسأله :

— ما رأيك فى شهريار ؟ .. هل تروقك شخصية شهريار سفاح النساء ؟

— بل تروقنى شخصية شهر زاد .

— لماذا ؟

— عظيمة . استطاعت أن تعالج شهريار كأعظم أطباء العصر النفسيين .

— ماذا فعلت ؟

— خاطبت فيه الطفل .. وليلة بعد ليلة انكسرت فيه شوكة السفاح وبقى منه الطفل الذى يتوسد حجر أمه وينصت إلى الحواديت والحكايات كل ليلة .. هكذا أصبحت شهر زاد رمزا للأم الحنون لا الزوجة الخائنة ، ولهذا أحبها شهريار . إن الحنان يكسر أنياب أشد الوحوش ضراوة .

— وأنت لم تجد الحنان من دورا .

— واختنق صوته وهو يقول : بل لم أجد دورا نفسها .

— ماذا تعنى .

— دورا تزوجت بالشاب الذى أحبته بعد أن القت فى وجهى بدبلة الخطبة فلم أعرف امرأة بعدها منذ عشرين عاما مضت ...

— لكنهم يقولون أنك تعيش مع دورا ، والذين يحدثونك بالتليفون وأنت فى البيت يسمعونك كثيرا وأنت تنهرها .. ثم حديثك الدائم لنا عنها وكيف انك ..

— قاطعه سيف الدين قائلا .. دورا التى تعيش معى هى كلبة بولدوج .

فهرس الكتاب



قطاع الثقافة

